(تفاحة الصحراء (رواية

محمد العشـري

الإهداء:

إلى هؤلاء: «الذين يقرؤون الآن، والمنسيين في صحراءنا الشاسعة، قديمـــاً .. وحديثـــاً.. دفئكم في قلبي».

شكر وامتنان:

للصديق جمال نافع: الصحفي بجريدة الأهرام

(١)

انطلق بعربته "الجيب" الرمادية بسرعة جنونية، يده اليسرى على مقودها، واليمنى تقبض على بندقية سريعة الطلقات، دار في منعطفات ضيقة بين التلال الدائرية، خرج منها إلى براح لا نهاية له، متتبعـــاً الظل المذعور الذي تلقيه الشمس المتوهجة تحت أرجل غزالة هاربة من صوت رصاصات بندقيته، التي تشده بنشوة انطلاقها إلى تتبع تلك الرقيقة، ذات الجسد المنتفض هلعـــاً، قلبها يدق بعنف مفرزاً خوفـــاً يبلل الرمال خلفها، قفزت إلى وادي "الحديج"، والعربة تقترب أكثر من قفزاتها، والقناص لا ترمش له عين، كله إصرار على ذبحها، كادت دقاتها تخرج دفعة واحدة حين أحست بسحبة الزناد، والرصاصة تتجه نحو صدرها بمجرد أن وقفت تنظر حولها للحظة، تتطلع إلى ذلك العنيد.

تهلل وجهه وهو ينـــزل من العربة متجهـــاً إليها، وهى مكومة على أطرافها تئن، دماءها تسيل وقد انحصرت في الوادي ذي الأرض المنبسطة الكاشفة لكل حشرة فيها، والتي كانت بمثابة الشرك لها، فبدت التلال الصغيرة من بعيد كحوائط مرتفعة تمنعها من الهرب، فسهلت له قنصها.

حملها بين ذراعيه مبتهجـــاً، رأسها متدلٍ إلى أسفل، عيناها على العشب – مأكلها ووطنها – وهى تبتعد عنه للمرة الأخيرة، أطلقت دموعها لتروي مكان قدميها، فربما يجد تلك الدموع أحباء من بني جنسها فتتذكرها، أو ربما تتشمّم آثار العجلات العائدة بها، فتنطلق

خلفها، تقف أمام الموضع الذي سيحوي عظامها، وتنبش الأرض بحوافرها.

ألقاها في خلفية العربة على أخريات صريعات ملوثات بدماء حارة، أجسامها تترجرج مفسحة لها. تحسس رؤوسها مزهواً، ألقى إليها قُبلة طائرة.

ركب العربة، داس على قلبها، وهو ينتزعها من بيتها إلى مكان تجهله.. أخرجت مِسكها في خامه الصمغي البني، أسالته من غدة تبرز من بطنها، رشته في الهواء مُطلقة نباحها المتقطع، مستغيثة بأوراق وجذور العشب، الذي اندس خجلاً بين حبيبات الرمل.

*

على جانبي الوادي من الناحية الغربية يقف تَلان عاليان كهرمين فرعونيين، فوق كل تل سور من الحجر الجيري المائل إلى الاصفرار، ملتف في نصف دائرة، ارتفاعه يقترب من المتر، من خلف السور تخرج ماسورة مدفع يبدو من هيئته أنه من النوع الصائد للطائرات.

لم يكن يدري أن الغزالة سحبته إلى تلك الفخاخ التي لم يرها وهو يرمح وراءها، توجس قليلاً، صعد في اتجاه أحد التلين، شعر بقطع الصخر تهز الإطارات وترنحه في مقعده، انقلبت الأرض تحته من رمال ناعمة مكسوة بطبقات العشب الأخضر الجاف إلى قطع من صخور "الكونجلومرايت" الزلطية الصلدة، المتراكمة فوق بعضها في أشكال هندسية مختلفة، على طول الطريق الصاعد إلى أعلى في مجرى حلزوني ضيق.

خلف السور كان هيكل المدفع غير مكتمل، من حوله طلقات ضخمة مبعثرة، بعضها فارغ والبعض الآخر ما زال بكبسولته الخلفية، تحسسها بلمسة خاطفة، كمن يجس سلك كهرباء مكشوف، ثم جذب يده.

شعور داخلي شحنه بشحنة عالية خدرته، وقعت عيناه المتوجستان على بعض المعلبات الفارغة المهترئة بفعل الصدأ، والذخيرة ذات الأحجام المختلفة مرصوصة في ركن إلى جانب نهاية السور الحجري، التقط عدداً من الطلقات، وضعها في الخلفية، في مكان فارغ بين أرجل الغزلان.

وقف ينظر أمامه، رأى امتداداً لا نهاية له، دار ببصره في كل الجهات، هاله ما شاهده من فراغ منكشف، فأي شئ سيقترب من ذلك التل لابد أن يراه الواقف عليه حتى لو كان

مجرد نملة تصعد متخفية.

ذلك ما جعله يستدير إلى المدفع النائم أمامه، اقترب منه، تحسس ماسورته، وجد الندى عالقــًا بها، يتكثف في قطرات تتدحرج إلى الأرض، تروي عشبــًا نديــًا ينمو متسلقــًا الأحجار، اخضراره زاهٍ، ونبات شوكي مورد يشربه طازجــًا، يضخه في زهوره الحمراء، فتتبت في التو أسراب النحل على رائحته، تمتص الرحيق وتنقله إلى معاملها.

*

هاجمته صورة المعركة الضارية، من مكانه شعر أن صفوفــًا من الجنود والدبابات تنتشر في الصحراء في اتجاهات مختلفة، رأى أمامه جنود المدفع وهم يعبئونه، يدورون به ضاربين تلك الجموع المتحركة، التي تبدو من بعيد كجيوش خراف هزيلة، أنهكها السير في صحراء مزروعة بالحرارة المرتفعة، والشوك المدبب يملأ فوالق الصخور المفتتة.

و"مونتجمري" وسط الجنود يضع النظارة المعظمة على عينيه، يرى أشباح جيش خصمه "روميل" تقترب منه، مخترقة الفخاخ التي بعثرها في كل مكان، يتملكه الرعب، يلتقط قلمه، يخط رسالة إلى زوجه، علها تكون آخر شئ يصلها منه:

(إن المعركة عنيفة، والعدو يسحقنا، وأنا أرقد في الليل مفتوح

العينين، أفكر في وسيلة للخروج بقواتي البائسة، المحظوظون

هم فقط الأموات).

سيطرت على القائد أذرع الفزع. فكيف استطاع الثعلب أن يتخطى رؤوس الشيطان المزروعة في أكثر من ١٧٧٢ حقلاً لغميــًا في مساحة طولها اثنين وسبعين ونصف كيلومتراً مربعــًا، وعرضها ثلاثة وخمسين كيلومتراً مربعــًا، موزعة بعشوائية لا مخرج منها، لا عربة أو حيوان أو حشرة أو إنسان يمكنه أن يفلت، حتى الطيور التي في الجو لابد أنها هالكة.

ضرب الخوف مسماراً في رأسه، أمسك البوق، نادى في آذان جنوده:

(إذا هوجمنا فلن ننسحب ولن نتراجع، وإذا لم نستطع الثبات

في مواقعنا، ونحن على قيد الحياة، سنبقى هنا جثثـــاً فوق الرمال).

*

قطف وردة حمراء من تحت المدفع، ابتسم وقال:

- يا له من مكان عبقري!

.. كيف اهتدوا إليه..

.. لابد أنهم قد اعتمدوا على البدو في السير والتنقل، وإلا غرقوا

في تلك المتاهة الجهنمية.

رأى الشمس على وشك أن تدخل في قلب السماء، ركب عربته، نزل بتأنٍ وهدوء. حين لامست العجلات أرض وادي "الحديج" دفع البنـــزين، هرب في اتجاه الممر الذي أتى منه، دخل في الطريق الممهد بالحصى في اتجاه البريمة، التي يعمل بها.

*

عَفّرت العربة الفضاء خلفها، مكونة سحابة من الغبار التفت حوله ومنعت عنه الرؤية، ضاعف سرعته خوفـــاً من الغرق في موج التراب الهائج، دقق النظر أمامه، أبصر كتلة كبيرة تسد عليه الطريق، هبط على الفرامل بقوة، فزعقت تحت قدمه، دفعت العربة إلى الدوران حول محورها.

تطاير دم الغزلان، سال من فوق كتفيه، نتيجة ارتطامها بظهر مقعده، خرج متأففـــاً، وهاشـــاً الجملين النائمين في عرض الطريق غير عابئين به، فقط حركا رأسيهما في اتجاه الزوبعة التي صنعها، ورجعا يلوكان ما تحت أضراسهما، ويكملان حوارهما.

اقترب منهما، فأرغيا وأزبدا.. تراجع خوفـــاً.

تساءل:

- ما العمل؟

نظر في ساعته، متكئـــاً بجذعه على مقدمة "الجيب". فعلى جانبي الطريق الممهد الأرض

مفخخة بالألغام، لم يتم مسحها مثلما مُسحت المنطقة التي يذهب للصيد فيها، التي تحتوي على إرشادات بالحجر الجيري المدهون بالطلاء الأبيض الناصع – حجر كبير أو حجرين فوق بعضهما على مسافات متقاربة – تبدو كهياكل آدمية منحوتة بالتجوية، واقفة في الخلاء كرؤوس مُعممة، فوق أجساد متكئة على جوانبها، ملتفة في حلقة سمر، نارها الهادئة تلمع في ضوء القمر، شايها وقهوتها يُسربان رائحة "الشيح"، فيستطيع أن يميزها حتى في الليل ويمشي على هديها.

وقف تائهـــاً في الفراغ المحيط به، يفكر في المدى اللانهائي، الذي ضاق حوله فجأة، ولا يجد ممراً ينفلت منه إلى موقع الحفر.

تخلف الجملان عن القافلة الشاردة في الصحراء في أماكن خطرة، لا يجرؤ أحد على أن يطأها بقدمه، فمع كل خطوة من خفوفها ينتظر الناظر إليها أن يهب لغم من نومه وينثرها أشلاءً في الهواء.

*

رغم تلك التداعيات التي صحت في مخه وأربكته، قيدت حركته في المكان الذي يقف فيه منتظراً أن ينهي الجملان حديثهما، يتركا له شريط المرور، إلا أنه شاهد صبيـــاً حرقت بشرته الشمس، يقترب منهما ببطء، ناظراً في اتجاهه.

لوح له بذراعه، فأسرع إليه، وعود الحطب يرقص بين يديه.

سأله:

- ما اسمك؟
- صميدة.
- هل هذه جِـــمالك؟
- لا.. إنني أرعاها فقط.

أضاف:

- حضرتك مهندس في البريمة؟

- نعم.

- كنت أريد أن أعمل بها مع إخواني، لكن الحاج ناجي– المقاول – منعني.

ضحك ضحكة عالية. قال:

- هيا حرك الجملين؟

- هل ستشغلني؟

- نعم.. مُر عليَّ غداً في البريمة.

تقافز صميدة تجاههما، زعق فيهما، ضربهما بعود الحطب، غارســاً طرفه في ظهريهما. قاما من بركهما على مضض في حركة كسولة، أفسحا له الطريق، وأعينهما تستغرب إصراره على أن يزعجهما، بدا كغريم يتربص بأوقات الخلوة لمنافسه، فقد بذل الذكر جهداً مضنيــاً للفوز بتلك اللحظات مع رفيقته، بعيداً عن تلصص الأعين، وتفتح الآذان من حولهما.

*

ركب مسرعــاً.. من بعيد أتاه صوت الصبي الذي انتبه لتحركه المفاجئ، سأله وهو غير موقن أن سؤاله سيصله:

-أسأل على مَن؟

رد عليه بصوت عالٍ مستغربــاً ظهوره، فهو واقف أمام العربة منذ فترة ولم يره، ولم يكن يتوقع أن يجد في ذلك الخواء اللانهائي قدمــاً تسير.

- الجيولوجي تامر "الدكر".

*

في تلك الصحراء الغولة يتناثر كل شئ فيها دون أن تمتلئ، فتبدو مبقعة بالناس والحيوانات والطيور والحشرات والأشجار والحشائش والأعشاب والألغام. حين تهب عواصفها، تغرق في بحار الغبار، تلتهب شمسها، ويمطر غطاءها سيولاً جارفة فتعجن كل ذلك في رمالها وترابها، وتُنبته مرة أخرى.

في اليوم الواحد تستطيع أن ترى الفصول الأربعة متعاقبة، ومتداخلة دون حدود واضحة.

ففي الشمال حد البحر الأبيض بأمواجه الزرقاء الآتية من القارة الباردة، ينحر في شفتها العلوية، محاولاً استرداد زمنه الأول حين كان سائداً ومغطيـاً لصحاري كثيرة. وفي الجنوب امتداد رملي جاف لا نهاية له بطول نهر النيل تتخلله بعض المرتفعات الصخرية الصلبة، وقنوات مائية جافة، تبخر ماءها، وبقيت كخطوط رفيعة على الخرائط الطبوغرافية. وفي الغرب صحراء ليبية مماثلة، جائعة ومتعطشة إلى الناس والماء. وفي الشرق مجرد خط زراعي أخضر مرسوم بالقلم على ضفة النيل، كجسر يحجز حركتها التي تُصحر الحياة ويمنعها من الانقلاب في الماء.

لذا يتلثم البدو بالقماش الأبيض الخفيف، الذي لا يمتص حرارة الشمس، فيبعث الرطوبة في الرأس والوجه، ويرتدون الجلابيب البيضاء لحفظ أجسامهم من الاحتراق.

الشيء اللافت أن النساء، تتشحن بالأسود الذي يغطيهن بكاملهن، ويُزيد من صهدهن فتتبخر الشحوم من تحت جلودهن، تراهن نحيفات، سمراوات، خفيفات كالظل، يستطعن المشي والرعي لفترات طويلة دون تعب أو إرهاق، يدفعن أزواجهن إلى المزيد من الراحة بما يتحملن من أعباء، تفوق ما يتحمله الرجال.

*

تحرك الجملان ولحقا بالقافلة، وهما يتباحثان في أمر تلك المخلوقات التي ظهرت حديثـاً في مملكتهما، تتنقل بعربات مختلفة الأحجام، تسكن في علب حديدية كبيرة، بالقرب من ذلك الهيكل الحديدي الضخم، الذي يحفرون به الأرض، يثقبونها ويستخرجون من باطنها سائلاً أسود، يعبئونه في "تنكات" كبيرة، يمدون له مواسير صلبة، تمر من تحت أرجلهما في خط متصل، يضعون على امتداده علامات بالأحجار الجيرية، وأسهم معدنية في بعض الأماكن حتى وصوله إلى الميناء المتحرك المقام على شاطئ البحر.

دعا الجملان رفاقهما إلى زيارة للبريمة لرؤية هؤلاء البشر عن قرب وهم يباشرون عملهم، أكلت من العشب وتراصت في صف يتقدمها كبيرها، وبدأت المسيرة.

تلك الجِــمال كعادتها، تخرج في الصباح بعد أن تكون قد شربت، وملئت مَعداتها الثلاث، من بئر حفره لها صاحبها أمام داره، تتحرك في الصحراء بحثــًا عن عشب طازج تأكله، تقطع أودية ومنعطفات وتبعد مسافات طويلة، بخفوفها السميكة التي تحميها من الحرارة وتمنعها من الغوص، وتعود وحدها بعد أيام حين تحس بحاجتها إلى الماء، متغلبة على الريح المحمل بالرمل الطائر بأهدابها الطويلة، ومقدرتها على غلق فتحتا أنفها، ترجع إلى البئر وفق خريطة مطبوعة في ذاكرتها، لا تخطئها، يأتيها ذلك الصبي متتبعــًا أثرها بحثــًا عنها من آن لأخر، ليطمئن إلى وجودها، ثم يعود من حيث أتى.

*

عاد صميدة راكضــًا إلى داره، تسبقه فرحته، أخبر أمه وأباه الشيخ عبد الرحمن أنه سيذهب في الصباح للعمل في البريمة، فقد وعده المهندس تامر حين خلصه من الجملين.

هز الأب رأسه دافعــًا إليه ابتسامة خفيفة. قال:

– كم سيعطيك في اليوم؟

– مثل إخواني.

فكر قليلاً، ثم قطب جبهته، لعله أدرك مغزى سؤال أبيه، فهو ما زال صغيراً، وهذا ما جعل الحاج ناجي، الذي يُورد العمال إلى البريمة يستبعده من العمل.

بينما باب الحديث مفتوح على فناء الدار، هبت أصوات عاصفة، حملت الرمال في سحابة مرت من فوق رؤوسهم، لفت في الفراغ محدثة صراخــًا، خرج الشيخ عبد الرحمن إلى الحظيرة الكائنة أمام باب حجرته، هش الأغنام القليلة، أدخلها تحت غطاء مُهترىء من الوبر، مرفوع على أربع دعامات خشبية، ومثبت بأوتاد خيمة.

كان العواء يأتي من نهاية الصحراء، تبثه أرواح آلاف الجنود، الذين أتوا من بلدان ثلجية إلى أفران تحميها الشمس وتُسعر نارها كلما أطلت في وجوههم البيضاء.

تذكر الشيخ كيف كانوا يتساقطون أمامه واحداً تلو الآخر من ضربات الشمس، فيجمع لهم

الأعشاب، ويتتبع لهم الأثر، يدلهم على مرانب الأرانب البرية، ومكامن الثعالب، ودهاليز الحشرات والثعابين، يدفع عنهم أذى أفعى "الطريشة" المتواجدة بكثرة، ذات الحركة الحلزونية، والتي قفزت على أرجل الكثيرين منهم فأماتتهم في الحال.

ورغم هلع قائدهم إلا أن الأمر كان يمر سريعـــاً، ويذكره بما طلبه منه من أعشاب "الترقاس" التي توصل إلى فوائدها، حتى أنه كان يبعث معه بعض الجنود لجمعها من الصحراء، يحصد منها كميات كبيرة، يرسلها إلى رؤسائه في أوروبا مع رسالة مختصرة، كختم على اللفافة:

(لا تنس الترقاس لتسبح بقوة في بحار الحب الساخنة).

ويذيلها بإمضائه "مونتجمري".

*

عبد الرحمن الشاب اليافع في ذلك الوقت، يتواجد في معسكرات الجيش الثامن بشكل دائم دون أن يستوقفه أحد، لتعامله مع القائد الذي يكلفه بأشياء كثيرة ينجزها بمساعدة الجنود، وقعت عيناه على الملازم "دونا ماكسويل" التي تعمل في الصليب الأحمر، أغرقه موج التيه، خبط رأسه بكفه، أغلق عينيه على رجليها البضتين، اللتين تشفان بوضوح من تحت "الشورت" العسكري.

ابتسمت له، مدت يدها لتسلم عليه، وعلى وجهها إقبال شديد، مبتسمة تتطلع في ملامحه المعجونة بماء الشمس الحار، المستوية لتوها في أتون الصحراء.

استقبلها بحرارة شديدة، ضغط أصابعها بكفه الخشنة، وَدَّ ألا يترك الدفء الذي هبط عليه ونام في أوردته فجأة، تنبه لخطوات قوية تقترب فتراجع تاركـــاً يدها، وهو مشدود إلى تلك الحورية البرونزية، ولا يرى غيرها أمامه، بدأ يكتشف تلك الكائنات من البشر، يستحضر ملمسها في كفه.

كانت تكلمه بعربية مكسرة، فيلقي إليها ببعض الكلمات مشيراً إلى معانيها بحركات من يديه، فتكررها وراءه، يتشرب وجهها الأبيض وعينيها الزرقاوين تشدانه إلى ساحل البحر، تسلمه للهدير المتلاطم وتتركه في الأعماق، فيغمره قلبه المتدفق ويغرقه.

*

ثبت عمامته ضاغطـــًا على أذنيه، رأى الخطوات القادمة واقفة أمامه. أتى الطبيب "شاوصن"، متجاهلاً وجوده، كأنه لا يراه تحدث إلى "دونا"، وعاد بها إلى الخيام الطبية.

ظل واقفـــًا، ينظر في عين الشمس بقوة، يود أن ترفعه إليها، ليرى الكون بقلبه الجديد، ليطير في سماوات السعادة ويغترف من جنانها، شعر بقطرات العرق تتدفق وحرارته تتصاعد، كانت كل ذرة فيه تنصهر، وتغوص بين حبيبات الرمل.

*

فوق تلك السهول المنبسطة تنتفض خطوط شحنات كهربائية، تمر لامعة تخطف العيون لترسم أشجار البرق الفضية اللامعة، وتسرج الجو، فيتعارك جَــمل الصيف مع جَــمل الشتاء. يوشك الكون على الانهيار، تهتز السحب الثقيلة تحت أصواتهما العنيفة، يتوالد الرعد المتشعِّب، الذي يكسح السيول بعد تلك الهبة القوية للريح، ويغسل الأتربة، يتصالح الجملان حين يتفقان على أن يتجاورا في سلام ويفسحا المشرب لبعضهما، يشربان من المياة المنهمرة التي تتحول إلى برك ومستنقعات، تمتصها الرمال بشراهة وتغلغلها تحت السطح، منتقمة من الجفاف الذي يُذلها لفترات طويلة.

*

ابتهج البدو بالأمطار التي ينتظرونها عامـــًا كاملاً، خرجوا يبذرون بذور القمح والشعير والشوفان في تلك البقع المبللة، المتناثرة في فضاء الصحراء، موغلين في العمق الجغرافي باتجاهاته الأربع، يضيفون إلى أرضهم مساحات أخرى، ويقسمونها بالتساوي فيما بينهم بالكلمة التي يأخذونها على بعضهم كسجل لا يحيدون عنه، يحفرون آبار المياة أمام جدرانهم المتهالكة، يروون عطش إبلهم وأغنامهم وحميرهم التي تنقلهم من مكان لآخر، فمعظم الحيوانات في الصحراء لا تشرب مكتفية بما في غذائها من ماء. وهم يشربون لبنها للتغلب على الحر، فيرطب جلودهم بنعومته.

فضلاً عن فرحهم بنباتات "الغرنبوش"، و"الميدك الحولي"، و"الكريشة"، و"الحطيب"، و"الجلبان"، أنواع عشبية كثيرة تتميز بخاصية إعادة البذور ذاتيـــًا دون تدخل منهم، تستطيع النمو حتى في الجفاف القاتل، فيطعمون بها حيواناتهم، وأحيانـــًا يأكلونها دون

غضاضة، لاحتوائها على البروتين بنسب عالية.

*

وقفت حشرة طائرة كانت في طريقها إلى جحرها الرملي متطفلة على سنام الجمل الكبير، الذي يتقدم القافلة المتجهة إلى البريمة، أرادت أن تشاغبه قليلاً قبل أن تذهب إلى بياتها، كطفل شقي طقطقت بفكيها الصلبين، فتردد صوتها وعلا فوق رؤوس الجِمـــال، انكمش السنام وانبسط عدة مرات محاولاً طرد تلك الغريبة المشاغبة، التي التصقت به، نزلت إلى فخذه راشقة خرطومها الإبري في لحمه، بَرَكَ على الأرض، تقلب في التراب، دافعـــًا عنه اللسع الذي أصابه، بركت القافلة تلقائيـــًا وراء قائدها، وسكن الصوت مع طيران الحشرة بعيداً، وهى تقهقه لِمَ سببته من أذى، معلنة عن وجودها وملكها لجزء من تلك الأرض.

بدت الجِمال من بعيد كَوَبرِ بني ضارب في الاحمرار، يتجمع في الصحراء، مكونـــًا خطـــًا دائريـــًا، تاركة وراءها آثار خفوفها كمجرى مائي جاف. وذلك العصير المخاطي الأبيض الممزوج ببطش خضراء يتدلى من شفاهها الغليظة ذات اللون الوردي الفاتح، وهى تلوك العشب.

التفت في دائرة ضيقة حول كبيرها، وفتحت آذانها.

كانت عيناه شاردتان، وصوته المتصل يُخرج من ذاكرته أعشاب أكلها عند رؤيته لتلك المخلوقات للمرة الأولى، منذ زمن طويل، هؤلاء الآدميون الأتون مدرعين، والمختلفون عن راعيها، في ملابسهم، وأدواتهم، ودوافع وجودهم، وعرباتهم، وآلاتهم التي تنشر النار وتفرق في الجو.

فمن قبل لم يكن الحذر يلتصق بمخدات أرجلها وهى تدب في الصحراء، منطلقة ومرحة، عالمها خاص بها منذ خُلقت، تترك نوقها آمنة إلى أن لا شيء سيؤذيها، وحين أتى هؤلاء المسلحون، ولغّموا بساطها، صار الموت متربصـــًا بها، ملتصقـــًا بخفافها الناعمة.

*

أعلن "موسوليني" مؤازرة "النازي"، ودخول بلاده الحرب طمعـــًا في التحكم في البحر المتوسط وقناة السويس، لأنها رأت أن من يتحكم في هاتين البوابتين يستطيع أن يجذب ذلك الحبل ويخنقها، يشد الحذاء من قدم أوروبا –كما تبدو خارطتها – أرادت أن تسيطر

عليهما لتحمي نفسها، من هجمات البرابرة، وتَطلُّع البلاد المجاورة للدخول في أعماق البحر من خلال جُذرها.

*

بدأت المناوشات بين الدوريات العسكرية في منطقة الحدود مع ليبيا، احتل "سيدي براني"، ثم تراجع وسقطت منه "برقة" الليبية تحت زحف النمل البريطاني الأبيض..

..كَرٌّ وفَرٌّ لخمس مرات..

فحين سقطت منه "طبرق" تجنـــزر وتلاحم مع محوره الألماني في هجوم جارف، استولي على كل ما قابله.

وفي مدينة "بنغازي" وقف مبتسمـــاً أمام جملة قرأها مطلية على جدران منازلها.

(حافظوا على نظافة هذا المنـــزل، سنعود إليه قريبـــاً).

شُوهدت الأعلام مدلاة من أسطحها تحمل نفس العبارة، فقد كانت طرابلس ملجأً للإيطاليين في بداية الحرب ونهايتها، ونظم مونتجمري منها دفاعـــاً رهيبـــاً لتعطيل قوات غريمه لفترة لم تزد على اثني عشر يومـــاً لينسحب بقواته المتهالكة، تاركـــاً وراءه أكبر حقل ألغام في العالم، بقى حقل "البويرات" على بعد مائتين وخمسين كيلو متراً شرق طرابلس، والذي زرع فيه مائة وخمسين ألف لغم بمعدل أكثر من عشرة آلاف في اليوم الواحد، متأهبـــاً للانفجار بشكل دائم، مانعـــاً الأرجل من الاقتراب منه، مزلزلاً الأرض تحت حوافر الحيوانات الضالة، وناثراً لحومها على الرمال.

*

(٣)

في الطريق عرج الصبي صميدة على دار الشيخ حمد – صاحب الجمال التي يرعاها – سلمه كلمته وخرج ليسبق شعاع النهار جريـــاً.

كانت السيول قد أضاعت المعالم الممهدة المؤدية إلى البريمة، وخلطت الطريق بما حوله من رمال وأعشاب، وهو لا يبالي بحال ما تحت قدميه، فقط يغني شوقـــاً إلى إخوانه الذين

يعملون هناك، وذهابه لينضم إليهم، ليصبح في مقدوره أن يمسك الجنيهات بين أصابعه، ويشتري ما يريد دون انتظار مساعدة من أبيه أو أمه، والأهم من ذلك أن يكف عن السير وراء الإبل التي تشده إلى مسافات بعيدة يضطر معها أن يبيت إلى جوارها في الظّل، ويفقد صحبة رفاقه لفترات طويلة، معرضـــاً نفسه لمخاطر الضواري، ففي رعيه لم ير الأموال الورقية ولو من بعيد، لم يتحسس رائحتها التي تلون إخوانه بالزهو، حين يعودون إلى الديار ليومين أو ثلاثة كل شهر، وأحيانـــاً كل خمسة وأربعين يومـــاً.

حين انتصفت الشمس في قلب السماء، شاهد برج البريمة، فأسرع خطواته في اتجاه الخيمة النائمة على حدود ملعب الحفر، كما بدا له من بين "الكرفانات" المعدنية التي يبيت فيها المهندسون والعمال.

تهلل حاجباه بالدهشة، وعيناه تقعان على قافلة الجِمـــال التي سبقته، وجدها متناثرة حول الموقع، تصطاد العشب وتشرب من الماء العذب، الخارج من المواسير البلاستيكية إلى حفرة خلف "الكرفان" المخصص للمطبخ.

حيته برقابها فأشار لها بيده، حرك ذراعه بشكل خاطف، كأنه ممسك بحطب وهمي يداعبها به.

*

ذهب الشيخ حمد إلى دار الشيخ عبد الرحمن، جلسا يتحدثان أمام نار الحطب، وبخار الشاي المخلوط بأوراق "الشيح" يولد سحابة ذات نكهة حلوة تخترق أنفيهما، فيمددان أرجلهما على الحاشية، قال الشيخ عبد الرحمن:

- منذ وقت طويل لم تأت إلى داري يا شيخ حمد!

- والله، أنا مقصر معك يا شيخ عبد الرحمن.

- وكيف حال تجارتك الآن؟.

- بخير، ولكن أنت تعرف الإبل تحتاج إلى رعاية، والشباب انفلتوا من بين أيدينا، لا تجدهم اليوم، حتى ابنك صميدة، سلمني زمامها وهرب.

- هوس البترول يا شيخ حمد جنن العالم، فما بالك بأولاد لم يروا الجنيه من قبل.

- معك حق.

- البريمة واقفة في وسط الصحراء مثل المقام، الكل يريد زيارتها

والتمسح بحديدها، يمكن يطوله البركة.

- فعلاً الزمن بقى غير الزمن.

- هل نسيت حالنا ونحن شباب، والحرب هربت من الدول ووصلت إلى هنا، والقادة المجانين عبروا البحر بجيوشهم، وجروا وراءها.

- مرت الأيام بسرعة.

- والله ما زلت أذكرها جيداً يا شيخ حمد.

- قصدك الحرب أَم الملازم الجميلة يا شيخ عبد الرحمن؟!.

- الفاتنة "دونا ماكسويل".. آه منها.

تحسس قدمه اليمنى، جذب عليها طرف جلبابه، أَمَالَ أذنه تجاه الجمر.

- احترس، أم صميدة ستسمعك.

- أنت واهم يا شيخ عبد الرحمن.. أتعتقد أنها لم تعرف تلك القصة حتى الآن؟!

ضحكا معــاً ضحكة عالية، أعادت الدم إلى جلودهما المتغضنة، قَلّبَ الشيخ عبد الرحمن جمر النار وأعاد ملء البراد، أمسك جمرة بيده ودفسها في الرماد. قال:

- ما زالت علاماتها في قلبي مثل تلك الجمرة المتوهجة..

.. مثل ختم الإبل على لحمها..

.. آه.. "دونا".. لو أعلم أين مثواك.. لقطعت الصحاري

ليلاً ونهاراً بحثــاً عنك.

- بعد كل ما مضى يا شيخ.
- ماذا أصنع، العشق يا حمد يفتت الصخر.

*

كان عبد الرحمن في صباه يرعى الماعز والأغنام، يشق الأودية ويصعد التلال، واضعــاً عصاه على كتفيه، مرتلاً مزامير الرعاة التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل، تصبح هي الحوار الأبدي ما بين الراعي والطبيعة والحيوانات، لغة مشتركة تلم شمل الكائنات تحت مظلة الإله.

استقر في الضبعة مع أهله، بعد أن جابوا الفيافي مسحــاً لكل اتجاهاتها المنبسطة، وزواياها المنحدرة من الجبال والهضاب، حتى أن المسار الذي أتى منه غاب عن ذاكرته، فتارة يذكر أنه أتى من الشرق، وتارة من الغرب، وأخرى من الشمال أو الجنوب، فحين تتعامد الشمس فوق رأسه مباشرة تتوه المسارات، تصبح النقطة التي يقف عليها في حينه هي كل الكون، وثنيات الغرود الرملية الهائجة تزحف باستمرار مُطيعة لاتجاه الريح، بحثــاً عن الراحة تغطي العشب، تتراكم فوق بعضها صانعة تلالاً كأسوار القلاع، تدفعه إلى البحث عن مراعٍ أخرى لحيواناته الجائعة، التي تتحمل الآلام على مضض، مُظهرة بريقــاً سائلاً يهطل من أعينها يدعو إلى الشفقة. تنفق الصغار والضعاف في الرحلة الشاقة قبل أن تجد مكانــاً يداويها بجذور عشبية متبقية، أو بقطرات ندى عالقة.

ذلك هو موطنه، وإن كان من آن لآخر يفضل أن يعود بجذوره إلى قبائل "أولاد على" المنتشرة غربــاً، لما لها من عراقة وسمعة بين البدو والرحالة.

*

حين صهرته الشمس وهو واقف أمام الخيمة الطبية، دلف إلى الداخل وظهر كفه على جبهته، أراد أن يحصل على مُسكِّن لألم رأسه، وجدهم يهنئون الطبيب "شاوصن" والملازم "دونا ماكسويل" على خطبتهما، وقف بلا حراك يتطلع إليها، لا يدري ما الذي أصابه، ولماذا شعر بخنجر مسموم يرُشق في صدره بعنف، ويثبته في الهواء.

نشط تحت جلده الشطط، وَدَّ أن يحرق المعسكر بأكمله، أن يفجره حتى لا تبقى ذرة

رماد تدل على أحد من هؤلاء العجم الذين يبتسمون في وجهه، ولا يرون النار المشتعلة تحت جلبابه.

خرج الخطيبان، ركبا العربة وسلكا الطريق المؤدي إلى الإسكندرية، ليتزوجا في القنصلية الإنجليزية.

والإطارات عَبــّرت عن سخطها فدفعت الغبار، ونفخته في وجهه الشارد في دنيا القلوب المعذبة.

هام على غير هدف، يتسكع في الصحراء، اقتطف وريقات من عشب ذي حواف خشنة متعرجة، داكن اللون، مضغها وتمدد على الرمال، لفه القيظ في سرابه، قام يجر قدميه، ترنح ووقع على انفجار مدو، بَــتَرَ له إصبعين من قدمه اليسرى، وأحضر له فرقة من المعسكر، وجدها فوق رأسه في لحظات.

لم يشعر بألم من جراء ما وقع له، فقد كان قلبه مطعونـــًا، ينـــزف بغزارة، طغت على كل الآلام.

*

الحب حين يولد يخلق قانونه الخاص به، الذي لا يركن إلى عقل أو منطق، فتلك الحسابات والقوانين هي من صنع الدماغ في لحظات رائقة، يكون فيها القلب ميتـــًا، والحياة في الصحراء تترك المشاعر لتنطلق بحرية على طبيعتها.

فحين رأى القائد ذلك التجاذب بين الملازم "دونا" والشاب عبد الرحمن، ناداها في خيمة مكتبه، وسَدَّ عليها الباب.

خرجت بعد ساعة، وجهها شديد الاحمرار، تخفي ارتباكـــًا، تسوي ملابسها، وتُدبّس شعرها الطويل.

خرجت "دونا ماكسويل" أخرى غير التي يعرفها عبد الرحمن، الذي لم يشعروه بأن هناك شئ غير عادي يحدث في المعسكر، بل طلب منه إحضار المزيد من الأعشاب لتصديرها مع بعض الأفراد المسافرين.

بعد يومين رتب القائد أمر زواجها من الطبيب "شاوصن".

أدار القمر وجهه المعتم له، تاهت المعالم تحت قدميه، وتخبط في الظلام.

تغيرت تمامـــاً معه، لم تعد تتحدث أو تنظر إليه عندما يتواجد في المعسكر، بل كانت تختفي داخل الخيام التي تعمل بها.

كان يأتي ليقتات من بعيد لقمة جافة، يُسربها إلى قلبه، يتقوى بها على العيش، فيبتلع في جوفه نظرة صامتة ويعود منـــزوع اللسان، مقبوض الصدر لا يقوى على حمل جسده المنهك.

أي عذاب صبَّه فوق رأسه بذلك العشق الصامت، الذي يُغذي بناره، ويُطفأ بثلجها.

أشهر عديدة مرت وهو لا يجرؤ على الاقتراب منها، يمنعه عدم نظرها إليه، تجاهلها له كأنه ارتكب شيئـــاً آذاها، ظل على ذلك التردد والإحجام حتى سافرت إلى بلدها عندما حملت لكي تضع مولودها الأول بين أهلها.

*

هبط طائر الرُخ وانتزعها من بين ذراعيه، حملها بين مخالبه، رفعها وطار إلى واديه البعيد، وهو في القاع يحاول أن يتشبث بشيء منه، أمسك ريشة وارتفع معها، جدف في الهواء إلى أن سقطت به في سفح عميق، اختطفها وحلق إلى ما لا يقدر على الوصول إليه.

عاد إلى دياره، ذهب إلى العرافة، خلطت له الصبر مع جذور عشبية وسقته العلقم، وهو ملقى على الرمل، يفكر في وسيلة يداوي بها قلبه المنهوش، يبحث عن متاهة يجذبها إليها، وشباك حديدية لاختطافها حين تعود من سفرها، صمم على أن يُركبها أمامه على ظهر جمل أسود بسنامين، غريب عن المكان، سد عينيه بقماش أحمر، ودفعه في لحمه ليشرد بهما في اتجاه جذوره على الحدود الليبية.

*

دخل صميدة إلى الخيمة، وجد جويدة نائمـــاً، هزه بأصابعه فانتبه، قفز من نومه، أخذه بين ذراعيه.

- كيف حالك يا صميدة؟.

- الحمد لله يا جويدة.

- وكيف أخبار الضبعة والأهل؟.

- كلهم بخير.

شرع في إشعال الحطب، وإعداد الشاي في مدخل الخيمة. قال:

- هل أغوتك الجِمـــال بالرعي هنا؟.

- لا.. أنا هنا للعمل.

- هل قابلت الحاج ناجي؟.

- لا.. قابلت المهندس تامر.

- لقد أتيت في الوقت المناسب، حان موعد ذهابي إلى "التنكات"، هيا لأريك الإخوان.

شرب الكوب دفعة واحدة، لبس "أفروله" الأزرق، دس قدميه في الحذاء الطويل، سحبه من يده. قال والابتهاج يغمره:

- لنذهب أولاً إلى المهندس تامر في "كرفانه".

تباطأ في مشيه خلف جويدة، عيناه على تلك الآلة الضخمة، التي يبدو كل شئ حولها قزمـــاً مهملاً، أحس أن هناك ما هو أقوى من الجِمال والصحراء و"الطريشة" والعقارب والثعالب، والضبع، وأن صوت مولدات الكهرباء المرتفع يُرهب أكبر عفريت في الصحراء.

أبصر صديقه يدق باب "الكرفان" فلحق به، متخففـــاً من علامات انبهاره ودهشته، عندما رأى أحد العاملين يقف على شرفة مثبتة قرب تاج البريمة، يبدو له من مكانه كعصفور

يتحرك على فرع شجرة كافور عملاقة، تخيله وهو يتعلق بالسلك المثبت تحت قدميه، والمائل حتى وصوله إلى الأرض على مسافة بعيدة، صانعـــاً زاوية حادة، وينـــزلق معه إلى الوتد المدقوق في صبة خرسانية.

سأل جويدة عن فائدة السلك الرفيع الممتد، فأجابه بأنه سلك الهروب لذلك العصفور النطاط فوق العوارض الحديدية، إذا ما حدث أمر ما يستدعي ذلك. سأله عما يقوم به في ذلك المكان المرتفع، فأخبره بأن مهنته خطرة، لأنه يحرك وصلات مواسير الحفر، ويدفع طرفها العلوي لتثبته الأذرع الميكانيكية في مساره، لاستكمال الحفر إلى العمق المطلوب.

هلل قائلاً:

- متى عرفت بكل هذا؟!

- لا تستعجل.. فالأسئلة الكثيرة عما لا تعرفه سوف تقفز من لسانك.

*

هاجم الضبع الشارد إبل الشيخ حمد فأصابها في أرجلها، لكنه لم يقدر على الخطف منها، تسلل في البلدة، خطف واحدة من أغنام الشيخ عبد الرحمن واختفي.

خرج الشباب مسلحين بالخناجر والعصى يبحثون عنه، جابوا الأودية والتلال والسهول، وعادوا دون أن يفرغوا شحنتهم ورغبتهم في الانتقام. قال أحدهم:

- لقد هرب هذه المرة أيضـــاً.

رد الشيخ حمد:

- هذا الضاري اللعين من أين يأتي؟!.

أضاف آخر:

- لابد أنه قريب من هنا، إنه يحفظ بيوتنا وطرقنا وممراتنا.

انفضوا بعد أن واسوا الشيخ، أحصوا معه أغنامه القليلة، منبهين على بعضهم البعض

بإغلاق الأبواب جيداً.

تأبط ولدان بعضهما، تركا الجمع، سحبتهما أقدامهما إلى الخلاء، منهمكين في حديثهما، جلسا على ربوة بعيدة، تطل على ديارهما المتلاصقة، انتبه الأصغر إلى شئ، لفت انتباه الآخر قائلاً:

- شكل ديارنا غريب جداً. أول مرة أراها من هنا.

نظر الآخر في نفس الاتجاه. قال:

- شكل الضبعة الكبيرة تمامــًا، أليس كذلك!.

- ماذا تقول؟!.

- حكى لي جدي عنها قبل موته. ألم يحك لك جدك؟!.

- لا.. عن أي شئ؟.

سكت للحظة. قال:

- ممكن تحكي لي؟.

انقلبا على ظهريهما، فتحا أعينهما على مفرش السحاب الأزرق، بدأ الذي يعرف في التدلل والغموض، ثم انصاع إلى رغبة الآخر حين وجده على حافة الشوق والعطش إلى ما يخبئه عنه.

*

قال وهو يشبك كفيه خلف رأسه، واضعــًا قدمــًا على الأخرى، ومحركــًا أصابعها:

- نبع ماء في المكان الذي بُنيت فيه ديارنا، هو سبب تجمع أهلنا في تلك البقعة الصحراوية، فقد كانوا يتبعون دوابهم في رعيها، ينصبون الخيام لفترات في أماكن متفرقة في الصحراء صيفــًا، يمشطونها طولاً وعرضــًا بحثــًا عن أثر لنقطة ماء، شاهدوا طيوراً تهبط على مقربة منهم، تتبعوها، وجدوها تتحنجل جانب تلك العين، مقتربة في حذر، أعينها على باب كهف قريب من الماء، لمحوا ضبعة تنام فيه، توجسوا

واحتاروا، فماذا سيصنعون مع وحش مفترس، وهم بلا أسلحة.

توقف عن الكلام، فدفعه الآخر زاجراً إياه في جنبه. قال:

- ماذا فعلوا؟.

قهقه وواصل تشويقه في سرده المتقطع:

- سبقتهم الدواب إلى الماء، وهم واقفون يفكرون، في طريقة يقتربون بها.

خرجت الضبعة تتنطع مباعدة ما بين أرجلها، وهابطة ببطنها إلى أسفل.

الغريب أنها لم تهاجمهم أو تهجم على الماعز والأغنام، بل عادت إلى الداخل ورقدت. نصبوا خيامهم بقلق، بعد فترة ألفوا وجودها، وألفت وجودهم حولها. وفي المرات التي يرجع فيها الضبع من الخلاء ثورته عالية، تخرج إليه وتهدئه، يدخلان معـــًا إلى كهفهما. كان أهلنا يذبحون من دوابهم لمعيشتهم، ويضعون قطع اللحم أمام باب الكهف. وعُرف المكان بينهم وبين الوافدين بالـــ "الضبعة".

قام من رقاده، وبدأ يحرك ذراعيه في حركات تمثيلية مصاحبة:

- ومع الوقت ملّسوا حوائط الخيام بالرمل المبلل المخلوط بالحشائش، رفعوا البيوت. شعر الضبع والضبعة أن الظل يزداد حولهما، سلوك الحيوان كان طبيعيـــًا، لا صراع طالما أنه لديه ما يكفيه.

الشيء الغريب أن نفوس الناس لم تكن صافية تجاهها، ظلوا يفكرون ويتحينون الوقت الذي يقضون فيه على الوحشين، انتظروا خروجه المعتاد إلى الوادي القريب. جمعوا أوراقـــًا كثيرة من نبات مخدر، عصروها، وانتظروا ميعاد شُرب الضبعة، رشوه على وجه الماء، شربت منه وعادت إلى الكهف.

لم تدر بما فعلوه بها. ربطوا فكيها إلى بعضهما وأرجلها، ذبحوها وسدوا عليها باب مأواها.

أشعلوا النار، صفقوا بفرح، دقوا الطبل، رقصوا واللحم المشوي في أيديهم وأسنانهم يدخن

وينــزلق إلى أجوافهم، هنئوا بعضهم بقضائهم على ما يُخيفهم.

عاد الضبع متبختراً لا يدري ما ينتظره، أزاح الصخر من أمام بيته، جُن، هاجمهم في حرب مميتة، أصاب ثلاثة منهم، وجرحوا رقبته وظهره بآلاتهم وسكاكينهم.

تكتلوا أمامه، ولوحوا في وجهه الخناجر والعصي، فتراجع صاغراً، يبحث عن مكان جديد، دون أن ينسى ذلك الغدر الذي قضى على رفيقته، وأفقده كهفه، وضرب به في الصحراء شريداً بعد أن كان يحيا في هدوء، آمنـًـا مستقراً.

اعتدل في جلسته، سأل باهتمام:

– ماذا بعد ذلك؟

– كما رأيت اليوم، فمن آن لآخر يأتي إلى هنا محاولاً الانتقام، ولا يقدر إلا على الأغنام والخراف والماعز.

*

عاد الولدان إلى ديارها يقلدان صوت الضبع، فاصطكت الأبواب في وجهيهما، تطلع الناس من خلفها، ممسكين في أيديهم بأدوات مختلفة للمقاومة، والدفاع عن حيواناتهم، حين تلاشى الصوت بدخول الولدان إلى أهلهما، وبخوهما على تلك الحركات الصبيانية، أوقفوهما بجوار الحائط، أجبروهما على الخروج بالأغنام، حتى تعود السكينة، وتهدأ قلوب الناس المذعورة.

*

(٥)

طغى صوت مولدات الكهرباء الكبيرة في البريمة على كل شئ، أحس الجيولوجي تامر بالضجر، ذهب إلى وحدته الخاصة بتحليل الصخور الناتجة من الحفر، وجد زميله عبد المطلب عبد السلام يعكف على "الميكروسكوب" الضوئي، وضع يده على كتفه، فرفع عينيه ثم أعادهما إلى العدستين. قال:

– أهلا تامر.

لم يرد، أخبره أنه يشعر بملل، وأنه يود أن يسافر إلى القاهرة اليوم.

- لكن ما زال أمامك ثلاثة أيام حتى يأتي بديلك.

- أعرف، ولكن..

- تعال يا صديقي، ساعدني في التعرف على هذه العينة، أعتقد أننا اقتربنا من صخور الخزان المستهدف.

جلس مكانه، نظر في العدسات الزجاجية، وضبط الإضاءة. قال:

- لا أرى شيئـــًا، أنا متعب اليوم.

وعيناه في الإطارين المطاطين للعدستين التقط عبد المطلب حبات من العينة بالملقط، وضعها في حاوية خزفية بيضاء، تحرك باتجاه جهاز "الفلورسكوب"، وضعها فيه من خلال بابه الصغير، أدار مفتاح إطلاق الأشعة فوق البنفسجية التي تنطلق من لمبة صغيرة، سكب بضع نقاط من مذيب الزيوت فوقها، ومن خلال عدستين علويتين أمكنه رؤية ما إذا كان الصخر حاويـــًا للبترول من عدمه، حيث يتوغل المذيب ويتفاعل مع الخام النائم في مسام الصخر، مكونـــًا سحبـــًا متداخلة كثيرة بألوان مختلفة، تغطي وجه الحبيبات الصخرية الدقيقة.

قال:

- سالب.

- هيا بنا نشم الهواء.

- إلى أين؟!

- إلى البراح والهواء الطلق.

نظر في ساعته، ألقى نظرة على قراءة مؤشر "الطلمبات"، حَسَبَ الوقت التي ستخرج فيه العينة الجديدة إلى المناخل المعدنية. قال:

- أمامنا ساعة واحدة.

- ياسيدي، لا تقلق سوف نراها مع ما سيخرج بعدها.

*

خرجا معـــاً، يتمشيان بجوار الموقع. دعاه عبد المطلب إلى كوب من الشاي المصنوع على الحطب. مرا على خيمة العمال، لم يجدا أحداً، نظرا خلفهما، وجدوهم منتشرين حول البريمة، منهمكين فيما يقومون به، تركا الفكرة أمام الباب حتى يعودا.

توغلا في امتداد الصحراء، لكنهما حافظا على أن تظل أعينهما ترى البرج، حتى لا يضلا المسار.

قال عبد المطلب:

- وجدت هنا الأسبوع الماضي قميصـــاً ملطخـــاً ببقع من الدم المتصلب، وكان باليـــاً.. واضح أنه من بقايا الحرب.

- ماذا صنعت به؟.

ضحك في وجهه قائلاً:

- لبسته.. ألا تراه تحت "الأفرول".

وأضاف:

- حركته بعود من الحطب، فوجدت تحته عقربين أسودين، دارا حول بعضهما ذعراً، رافعين سمهما.

بينما هما يتحدثان وأعينهما تحت أقدامهما، مر من أمامهما أرنب بري بسرعة خاطفة.

انتبها له، فجريا خلفه، دقق عبد المطلب في الأرض، محاولاً تتبع الأثر، وجد بعض الأظافر مطبوعة في الرمل، لكنها اختفت بعد تسعة أو عشرة أمتار على الأكثر، رغم أن الأرض أمامهما منبسطة وخالية من أي شيء يمنع الرؤية.

ولم يعثرا له على رائحة.

قال تامر:

- تُرى أين ذهب؟!.

- لابد أنه دخل في مَرنبته.

- إذن بيته هنا؟!.

- أخبرني جويدة أنه يستطيع أن يتتبع تلك العلامات.

- هيا نعود ونأتي به، ليتني أحضرت البندقية.

- أراك قد تحمست، مرة أخرى.

- أنت تعرف كم أحب الصيد.

- بالمناسبة لقد سألني صميدة عن لقبك فضحكت. هل تعرف سبباً؟.

ابتسم وعيناه تدوران، قال:

- تقصد "الدكر".

- نعم.

- أخبرني أبي عندما سألته يوماً ما عن سبب اختيار جدي لهذا الاسم لابنه، فضحك وقال لي:

(إن جدك صعيدي، أنجبت له زوجته خمس بنات، وعندما

ولدت، أسماني هكذا.. هذا كل ما في الأمر.. فهل

تخجل منه؟).

- وماذا قلت لأبيك؟.

- طبعــاً، قلت له: (بل فخوراً به).

- لابد أن أباك قد واجه مآزق كثيرة مع اسمه الخشن، ولهذا أسماك "تامر".

- وأنت أليس اسمك مركبــاً حتى ثالث جد يا بن عبد السلام جاد الله.

ضحك الاثنان وهما يجريان وراء بعضهما، ناسيين الأرنب المراوغ، يعلو نداؤهم بأسماء الحيوانات ذات القدرة على الاختفاء السريع والظهور فجأة دون مقدمات.

*

تخلص تامر من القلق والتوتر المسيطرين عليه لفترة، جلس فوق صخرة، استراح من الجري، أشعل سيجارة، سأل عبد المطلب عن ظروف التحاقه بالعمل في الشركة، خاصة أنه لمس فيه لهجة وملامح ريفية قربته منه، أشعلت شمعة الدفء في علاقتهما.

أخبره أنه استطاع بصعوبة شديدة أن يحصل على ذلك العمل، فالأبواب جميعها مُقفلة، ولا تُفتح إلا بدقات مسئول كبير، أو قريب له حيثية يُقدرها من بيدهم الأمر. والاثنان غير موجودين بالنسبة له، لذا استغل الوقت الضائع وحصل على "الماجستير"، إلى جانب عمله في تقطيع وتنعيم الرخام في المحاجر الجبلية القريبة من القاهرة، ومن آن لآخر يذهب إلى شركة من الشركات ويترك بياناته، لعل أحداً ينظر إليها، أو يشذ عن القاعدة المتبعة، أو يُخطيء ويرسل له.

احتمالات كثيرة كان يضعها إلى جانب شهاداته، ربما تنتشله من تقطيع الصخر، الذي ترك خشونة واضحة في كفيه.

قال تامر:

- إلى هذا الحد!

- أحيانــاً يأتي الأمر بالصدفة، بل بتحمس البعض لك، وتقديرهم لإمكاناتك.

أثنى على مساعدة الدكتور محسن، الذي أشرف على رسالته، وأبدى له رغبته في

الحصول على فرصة يثبت بها ذاته فيما درسه وتعمق فيه، فلم يبخل عليه، ظل من جانبه يبحث له عن طريق زملاء دراسته العاملين في ذلك المجال، حتى وجد له مكانـــاً في حاجة إلى من يشغله، ظل خاويـــاً فترة طويلة رغم كثرة من يطلبون العمل، فيتركون صور مؤهلاتهم مشفوعة بالسير الذاتية، التي لم تبدأ حياتها العملية بعد.

أقبل على العمل بحب ورغبة قوية في أن يعوض الأعوام الضائعة، التي سبقه فيها أقران دراسته.

رد عبد المطلب السؤال على صديقه:

- وأنت.. من تحمس لك؟

فاجأ السؤال تامر، قام متكاسلاً يضغط ذراعيه للخلف، متثائبـــاً يبحث عن مخرج للحرج الذي ظهر على ملامحه، قال:

- ألن نرى الأرنب مرة ثانية؟

- تهرب من سؤإلي، لابد أن وراءك مسئولاً كبيراً، لا تريد أن تُصرح به.

عفر الدخان حوله، نبهه إلى صوت الريح، الذي بدأ يُضخ في طبقات الهواء، لم يستطع أن يطلعه على حقيقة الأمر، خوفـــاً من جرح مشاعره، وحتى لا يشاهد نظرة مفاجأة في وجه صديقه تؤلمه، لأن الوضع معه كان مُختلفـــاً، لأن الأب يعمل في نفس المجال في شركة كبرى، وجد مكانه محجوزاً قبل أن يُنهي دراسته الجامعية.

*

(٦)

بمناورات ثعلبية استرد "روميل" مدينة "طبرق"، دهن حوائطها بالأحمر، وخطا خطوة واسعة واضعـــاً قدمه في "السلوم"، رفع أعلامه على ساحل البحر، وتسلل منها إلى "فوكه" التي لم تصمد أمام زحفه، رشق الموت المفاجئ من فوهات بنادقه ومدافعه في قلب "الضبعة"، جازّاً في طريقة رقاب الجنود التائهين عن خط الهرب في متاهة الصحراء، رافعـــاً رؤوسهم على أعواد الحطب كعلامات تبرز من السحب الدخانية،

واضعـــاً جثثهم تحت عجلات عرباته ليتخطى صهد الرمل واشتعاله.

قَلّعَ حول أطراف "مونتجمري" الأكثر عدداً والأميز عدة، الذي لم يصمد وتقهقر إلى "العلمين" زارعـــاً خلف خوفه وهروبه لغمـــاً تحت كل حبة رمل بشكل لا تحتمله خرائط أو سجلات.

فمع الهرب يُلقي الهارب كل حمولته خلف ظهره دون أن ينظر أو يفكر في أي مكان ستقع.

*

أكثر من ثلاثين كيلومتراً قطعها صميدة مشيـــاً في الرمل الساخن، لينضم إلى العمال الذين يحملون أكياس الكيماويات على أكتافهم، يصعدون بها إلى مهندس الطفلة، الواقف على الخزانات الكبيرة المجاورة للبريمة، ينـــزعون خيوطها ويفرغونها في قمع ضخم، تُمرر منه المواد مُغربلة، وتخلط بمروحة طولها بارتفاع الخزان، ويُنقل الخليط إلى خزان آخر بقوة دفع، تصعد منه الطفلة في خرطوم ضخم إلى رأس البريمة، لتصب في فتحة المواسير.

وهو يُفرغ أحد الأكياس رأى الجيولوجي تامر بصحبة الخواجة "جون" يصعدان إلى العربة، يتحركان في اتجاه المعسكر الذي يبعد عن البريمة حوإلي ثلاثة كيلومترات، الحد الأدنى لتعسكر العاملين بعيداً عن موقع الحفر، تحسبـــاً لخروج غازات من فتحة الحفر، أو اشتعال حرائق مفاجئة.

*

اشتعل الحطب أمام باب الخيمة، مُسربـــاً ذيل الدخان في الهواء الجاف، خمدت النار على الحديث الدائر بين الوافد الجديد وأصدقائه القدامى، الذين مارسوا عليه أدوار العارفين بما تخبئه الأرض في باطنها، شعر أن الصحراء من حوله تغرق في طوفان من الزيت، أن رؤوسهم امتلأت وكبرت لدرجة أدهشته، تلفت واضعـــاً يده على الرمل، فاتحـــاً مركز الذاكرة للتلقي..

كرر جويده عليه أسماء المهندسين، والأجانب عدة مرات حتى حفظها.

*

معظم المتواجدين لا يعرفون أن الصخر والرمل السطحي تشتد حرارته بدرجة كبيرة، فيكسر الضوء الذي فوقه مباشرة، يجعله يبدو كبرك مائية شفافة، نتيجة للهواء الحار جداً الذي ينشط فيه ويزيد من سرعته، فيختلط عليهم الأمر، ويظنون أن الماء انساب من مصدر ما غير معلوم.

قال "جون":

- ما هذا الذي أراه.

أجابه تامر:

- الحرارة اليوم مرتفعة جداً، صهرت الرمل وحولته إلى ماء.

- غريب أمر هذا السراب، لو نستطيع أن نحبسه!.

- فكرة عبقرية يا صديقي.

دخلا إلى المطبخ، ليرتبا حفل الشواء على شرف الغزلان المسلوخة.

سأله "جون" وهو مندهش بما يراه:

- منذ متى وأنت تصطاد؟.

- فترة طويلة، فأنا عضو في نادي الصيد، وأجيد الرماية منذ صغري.

- إنها مغامرة.

- إنها متعة لا حدود لها، حين تطارد الحيوان حتى يتعب ويسلم لك رقبته في النهاية صاغراً.

- لكن الصحراء هنا خطرة.

- المغامرة ألذ شئ في الحياة.. اتركها على الله.

نَــزَّ الدهن من غزالة صغيرة تلف مُخترقة بالسفود، عبق الهواء برائحة شهية، نبهت النائمين إلى أن الطعام ألذ متعة في ذلك المكان الموحش، تزاحم العاملون، تراصوا على الموائد، جلسوا في انتظار الوليمة قبل الموعد بأكثر من ساعة.

أحد العمال نفخ الجلد وحشاه، أوقف هياكل الغزلان في الممشى الحديدي المؤدي إلى مكان الطعام، فبدت من بعيد بأرواحها، تحاول الفرار من الأسنان المشحوذة لالتهامها.

*

في القاهرة اختلفت الاتجاهات حين بعث "مونتجمري" إلى الملك يطلب عونه بقوات تحارب معه "روميل" الذي يحاصره في العلمين.

رأى شيخ الأزهر أن إيطاليا لا تحاربنا وإنما تحارب إنجلترا.

قال:

(هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل).

طالب آخرون أن نتحلى بالسلبية، لأنها أفضل الحلول في ذلك الموقف.

قالوا:

(لماذا لا نجلس نشاهدهما وهما يأتيان على بعضهما، فيأتينا

استقلالنا من حيث ندري).

وجهة نظر أخرى أثارها متحمسون، حين طالبوا بالدخول في معترك الحرب، وبرروا اختيارهم على أساس أنه إذا انهزمنا فلن نخسر شيئــًا، بل قد ينتهي الاحتلال نهائيــًا، وقد لا يُستبدل باحتلال إيطالي أو ألماني، حتى إذا احتللنا نكون قد تمرسنا، وأعددنا جيشــًا قادراً على الكفاح المسلح والقتال. أما إذا انتصرنا فإننا سنقنع العالم كله بأننا أمة باسلة، لم ترتض الاستسلام، وإنما اشتركت في صناعة النصر، ومن حقها المبادرة في صنع السلام، وتقرير مصيرها بنفسها.

نتيجة للارتباط مع بريطانيا بمعاهدة لندن في عام ١٩٣٦، والتي تجعل من كل بلد منهما

حليفـــاً للآخر في حالة دخوله الحرب، هذا هو الاتجاه الذي انصاع له الملك، وسعى لتنفيذه.

تحركت قواتنا تنفيذاً للمعاهدة، والمعركة على شَفرة الموسى، واغتيل رئيس الوزراء داخل البرلمان بعد إعلانه قرار الملك.

*

وفي "ليدز" بإنجلترا، بين معاطف العائلة الوثيرة ونار المدفأة، وضعت "دونا ماكسويل" ابنتها "مايا"، التي أنستها حَرّ ومرارة ما تقوم به من عمل ضمن قوات الجيش، في بلد بعيد لا تربطها به عاطفة، قضت معها ما تبقى لها من وقت، إلى أن حان وقت عودتها إلى صفوف الجيش الثامن، دق قلبها بعنف، وهى تستمع إلى رنين الأجراس القريبة منها، رسمت صلاتها بيدها وأغلقت عينيها، محاولة فهم ما انصاعت له، دون حب أو رغبة، كان زواجها أمراً عسكريـــاً واجب التنفيذ في ظروف الحرب.

رأت ما ينتظرها في الصحراء شاخصـــاً وطاغيـــاً، ابتسمت لذلك الشاب البدوي التي ترى في عينيه ما لم تره وتحسه من قبل أي شخص.

جال في خاطرها أن تبقى، أن تكسر الأوامر وتلوذ بصغيرتها، فكيف ستتركها هكذا مع أمها المسنة، وأخيها التاجر غير الموجود في المنـــزل دائمـــاً، أي دافع يجعلها تلقي غريزتها تحت قدميها وتنتقل من قارة إلى أخرى، لا لشيء إلا لتنفيذ رغبات مجنونة لأشخاص متهورين، يدفعون بجنودهم إلى التيه في رمال قاتلة، لأرض تقاوم وجودهم عليها فتزداد غليانـــاً تحت أرجلهم.

كانت ترى أبناء وطنها، وزملاءها، وهم يتساقطون غير قادرين على احتمال الصحراء.

القائد نفسه، أبرق إلى زوجته قائلاً:

.. إننا هنا ميتون.

وقفت في نافذتها المطلة على الحديقة، تنسمت أريج الزهور، تلمست حافتها المبللة بالمطر والعصافير تلوذ بها، أغلقت عينيها، رأت كل شئ حولها يدعوها إلى أن تظل في مكانها الطبيعي، وقف التردد في عينيها حائلاً لفترة طويلة.. راحت تفكر في:

المنـــزل..

زهور الحديقة..

العائلة..

صغيرتها "مايا"..

ندف الثلج المتساقطة على الأسطح المقابلة..

دقات الأجراس المنتظمة..

وهن الأم..

كان كل شئ يحيط بها رطبـــاً وناعمـــاً، يبعث على الاستسلام لخدر النوم تحت فراش وثير.

وصلت عربة الجيش، توقفت أمام البوابة.

من خلف الزجاج نفضت رأسها، حزمت متاعها، واتجهت مُنومة إلى الميناء.

*

هبت النار فجأة في صدر عبد الرحمن وأشعلت صبره في لهبها، حين علم أن الطبيب "شاوصن" أخذ العربة وذهب إلى الإسكندرية لاستقبال زوجته.

صحا النائم في أعماقه، دقه بعنف، كان غيابها قد أججه، دفعه في أرجوحة طرفاها مثبتان بقطبي الأرض، مرات عديدة انطلق إلى أعلى تل، ليهرب من دمه الساخن، فارداً ذراعيه وقدميه، ومباعداً بينهما، مستسلمـــاً إلى شئ لا يراه، يقلب جسده ككرة مطاطية لا تثبت في موضع، كان يأتي بأفعال من يره من بعيد يظنها علامات ذهاب عقله وشططه.

رسم على الرمل حدوداً بسن الخنجر، ورشقه أكثر من مائة مرة في موضع القلب.

هل أحست به "دونا" حقـــاً، أم أن الجفاف الذي يحيط بوجهه قد حَنَّ إلى الماء، إلى ملمس ناعم يرطبه وينـــزع عنه قشرة الصحراء الحارة.

هل كان يُراكم طبقات جبل العشق فوق بعضها ويصعد بها إلى عنان الأفق. وهى في الوادي منشغلة بأمر الجنود، ومراقبة حفر الجنود للخنادق وتنفيذ الأوامر، مُعطية له ظهرها.

تتبعهم وهم يحملون طوربيداً ضخمــًا، يزن أكثر من طن، به أربعة وعشرون مشعــلاً، وله جناحان وذيل كمروحة الطائرة، يخبئونه بين واديّ "الرويسات" و"المناسب"، لإطلاقه في الوقت المحدد.

تمنى لو استطاع أن يفجره فيهم..

أن يسحل جلودهم البيضاء الناعمة في سكاكين الرمال..

أحس بذراعيه مشجوبين، وأصابعه متصلبة على رقبتها، تصل إلى بعضها من الخلف، نظر تحت قدميه، رأى دماءه تسيل وتصب في مرجل يغلي وهو مصلوب فوق جذع شجرة، متساقطة الأوراق..

في صدره قنبلة، منــزوعة الفتيل.

*

(٧)

بعد أن رأيا برج البريمة على الأرض، عرفا أنهما ابتعدا مسافة كبيرة في عمق الصحراء، هز عبد المطلب الأشجار العشبية القصيرة بمقدمة حذائه الجلدي المزود بقطع من الحديد في صدارته، دفع بكتلة من الصخر إلى أعلى، وتتبعها بقدمه كأنه يشوط كرة.

قال:

- أحيانــًا كثيرة أتخيل أن هناك تنينــًا تحت هذه الرمال.

انفجر تامر في الضحك، وحين استرد أنفاسه. قال:

- أين هو؟!.

- هناك.. ألا تراه؟!.

- بلى أراه.. إنه قادم نحونا الآن.. فانظر ماذا أنت فاعل.

- انتظر لترى..

.. سوف أصعد على ظهره، أدفعه إلى أن يطير بي في السماء،

وألوح لك من شباك الشمس، أدلى أشعة من قرارها

لتتسلقها وتلحق بي بعد أن تكون قد تجرأت بدلاً مما أنت فيه

من جُبن.

- قصدك جُبن وملح.

-وبعد أن نقضي عدة أيام في السماء لنرى ممر الإسراء سوف

أعرج به، أدعه يغوص بي تحت الأرض، أنفلت من دقاق البريمة

الجائع، وأظهر لك مع العينات الصخرية، فتراني مبتسمــاً في

وجهك، ومحركــاً أصابعي إلى عينيك النائمتين وأنت تنظر في

"الميكروسكوب".

- كفي، تعبت، اترك رموشي.

غلبهما الضحك، فسكتا. تمدد عبد المطلب على الأرض فارداً ذراعيه باتجاه السماء.

قال تامر:

- مرحبــاً بالصديق المُجنح.

التقط عبد المطلب حجراً صخريــاً، قَلّبَه بين أصابعه. قال:

- هذه الصحراء تحتاج إلى حرب أخرى.

- يا لأفكارك الشريرة.

- أكثر من مليون لغم منتشرة هنا.. كيف سنطهر هذا العدد الخرافي.. قرأت مؤخراً في إحدى المجلات الأجنبية الموجودة مع "جون" أن أفضل طريقة لإزالة الألغام هي الطريقة اليدوية، والدراسات كانت عن بعض البلدان الأوروبية، وراح ضحية تطهيرهم لأرضهم عشرة في المائة من المشاركين في التطهير، بما يعادل اثنين من القتلى أمام إزالة كل خمسة آلاف لغم.

بحسبة بسيطة لإزالة مليون لغم هنا سنحتاج إلى استشهاد حوالي أربعمائة شخص.

- إذا حصلنا على الخرائط، سيصبح الأمر سهلاً؟.

- لا أعتقد أن هناك خرائط، فلو كانت موجودة لكنا قد حصلنا عليها منذ فترة.

- والدول التي أعطتنا بعضها.

- أشك أنها صحيحة، فمعظم الألغام زرعها "مونتجمري" وهو في حالة فرار.

- وماذا في ذلك؟!

- الأمر في غاية البساطة، فما رأيك إذا هاجمنا التنين الآن هل ستفكر في رسم المسار التي ستجري منه، أم أنك ستولي هارباً في أي اتجاه متخففاً مما يعوق انطلاقك.

- ربما.

- هيا بنا نسرع قليلاً، قبل أن يحل الظلام.

- قصدك، قبل أن يخرج التنين.

*

الجيولوجي في الصحراء حين تقع عينه على قطعة صخرية ويلتقطها فلابد أنها غير عادية، أو أن بها خطوطاً ما يود أن يدرسها ويفصلها على مهل، يُرجعها إلى أسباب

وجودها في المكان الذي وجدها فيه، فيحتفظ بها كأعز ما يملك.

أخرجها عبد المطلب من جيبه، اختبر صلادتها بأظافره، تذوق طعمها بطرف لسانه، وضعها في سجل نوعها ضمن الصخور الرسوبية التي رسبتها مياة البحار والمحيطات.

نزع بحذر صدفة فارغة، ملتصقة بها، وضعها أمامه، تعرف على جنس المحار، صنفه ضمن عائلته المسماة شعبة الرخويات، التي تحتوي على أنواع تصل إلى تسعين ألف نوع في عالم الحيوان، تتبع الجذور الأولى له، وظروف معيشته في المياة، بالقرب من القاع.

حين تراجع البحر في أزمنة جيولوجية بعيدة، خَلّفَ وراءه الكائنات الضعيفة التي لم تستطع أن تلحق به، وجدت نفسها عارية تشرب الندى القليل، طمرت انكشافها في الرمل وبقيت صدفتها الخارجية بعد أن مات الحيوان الذي أفرزها وعاش بداخلها، ثم وجد أنه في مكان ليس له فانتحر.

*

أثناء تناول العشاء، وتذوق اللحم الشهي، أصر الخواجة "جون" على أن يخرج للصيد بصحبته الجيولوجي تامر، عرضا على عبد المطلب أن يخرج معهما لكنه رفض مفضلاً أن يبقى ليتابع العينات الصخرية أولاً بأول.

اتفقا على وقت ملائم لترك البريمة، حتى لا يتسببا في توقف العمل المتواصل ليل نهار، فالعمل مقسم وفق برنامج معلوم لكل شخص، وفترات الراحة يرتبها كُلّ تبعــًا لطبيعة ما يقوم به.

لم يكن سير تامر عشوائيــًا هذه المرة، فاتجه إلى وادي "الحديج" مباشرة، في الفترة التي تسبق شروق الشمس، فالحيوانات في ذلك الوقت تكون نشطة خارج مخابئها، ففي الليل تهبط درجة الحرارة، يغدو الهواء أكثر رطوبة، تخرج الحيوانات بحثــًا عن طعامها، التي تجده بصعوبة بالغة، لهذا نبه تامر رفيقه إلى أن العناكب والعقارب الصحراوية سامة جداً، وإذا ما وجدت فريسة مناسبة فإنها تنقض عليها ولا تترك لها فرصة للإفلات.

سأل "جون":

– لماذا تختفي معظم الحيوانات في النهار؟.

أجابه تامر وقد لمح شيئـــاً من بعيد، فوجه سرعته نحوه:

- درجة الحرارة نهاراً قد تزيد على خمسين درجة مئوية، وتصل حرارة الرمل السطحي إلى تسعين درجة، لذا تلجأ معظم الحيوانات إلى جحورها، أو تستظل تحت الصخور حيث الهواء أبرد وأرطب.

- درجة عالية فعلاً، لكن كيف يحافظ النبات على حياته؟.

- النبات يفقد ماءه عن طريق الأوراق، ولهذا ترى غالبية النباتات ذات أشواك حتى لا تُؤكل، والمسام تظل مقفلة نهاراً للحد من فقد الماء، وبعضها له أوراق شَعرية تعكس حرارة الشمس القوية، لتحافظ على درجتها الداخلية.

- أراك تُطبق دراستك للعلوم جيداً في تفسير ما حولك.

- أحاول أن أفهم بعض أسرار الطبيعة.

- أرضكم غنية.. فوق الأرض وتحتها كنوز لا نهاية لها.

ابتسم موجهـــاً عيناه إلى عينيه مباشرة، أضفي على حديثه بعض المرح، قال:

- لذلك أنتم هنا.

- هل تتوقع أن نجد البترول في البئر الذي نحفره؟.

- بعض الشواهد التي رأيناها تدل على ذلك.. أيام قليلة ونصل إلى صخور الخزان المُستهدف، المهم أن يظل مسار فتحة البئر مستقيمـــاً أثناء الحفر كما هو مخطط له.

- لا تقلق.. إنني أُطبق البرنامج الموضوع بدقة.

- أين عملت قبل أن تأتي إلى هنا؟

- في بلدان عربية كثيرة، في آسيا وأفريقيا.

- أي البلدان أحب إليك؟.

- طبعـــاً هنا.. المكان له حضوره وثراؤه، فضلاً عن تاريخه الأثري.. والناس أكثر ألفة وراحة في تعاملهم.

*

مع أول شَعر أرجواني ناعم يظهر من رأس الشمس المبلل في فضاء الكون، يتخلل الهواء، ينغرس في حبيبات الرمال، جذب انتباه تامر حركة مفاجئة وراء صخرة، أشار له "جون" مُخرجـــاً ذراعه من العربة، لف حولها بسرعة، لم ير شيئـــاً، تملكته الحيرة، أوقف العربة، نزل مترجلاً، شاهد ثعلب "الفَنَك" ذا الجسم الصغير والذيل المنتهى بطرف أسود، يرفع أذنيه الكبيرتين ويهرب من المسار الذي رسمته الإطارات، صَوّب في اتجاهه عدة طلقات، لكنه كما ظهر اختفي.

هلل "جون" مندمجـــاً في المغامرة، كأنه بطل فيلم من أفلام "رعاة البقر" ضم أصابعه، فرد سبابته، أخرج من فمه صوت رصاص منطلق، أخرج جسمه من العربة، ملوحـــاً بيده الحرة. قفز تامر إلى دواسة البنـــزين، رمح بها مصوبـــاً بندقيته إلى غزالة نائمة على ظهرها، تدفع بأقدامها في الهواء.

*

(٨)

في الخيمة التف جويدة وفواز وحمدون حول صميدة بعد انتهاء أول وردية عمل له، قَلّبوا الجمر في ضوء القمر السابح فوقهم، مدوا أيديهم لالتقاط الدفء وفرشه على وجوههم، سكبوا الشاي المخلوط بالأعشاب في أدمغتهم، أقاموا حفل صهلله، يمزحون مع الوافد الجديد، مستعرضين خبرتهم فيما عرفوه من أمور الحفر، متتبعين الأبراج التي تضيء نجومها، مزيـــنة القبة السماوية المنكفئة على امتداد الصحراء.

سأل عن مكان نومه فناوله جويدة بطانية، أخبره أنه سينام معه على طاولته الخشبية.

شكره قائلاً:

- سوف أفرش البطانية هنا على الأرض.

أشار جويدة إلى الطاولات الثلاث التي تخصهم، سرد عليه كيفية إحضارها من البريمة.

عندما ذهبوا إلى الخواجة "جون"، قالوا له إن أفعى "الطريشة" تزعجهم وهم نائمون على الأرض، ويريدون شيئـــًا مرتفعـــًا نسبيـــًا يبعدهم عنها.

وحين بهت الخواجة من كلامهم، أشاروا عليه أن يأخذوا ذلك الخشب الذي يأتي كطاولات تحمل أكياس الكيماويات.

قال فواز:

- منذ نمت على الطاولة لم تعد الأفعى تقلقني، فأحيانـــًا أشعر بفحيحها ماراً من تحت الخشب وأنا نائم، فأضحك في سري وأواصل النوم.

سأله حمدون:

- كيف حال الشيخ عبد الرحمن؟.

- لم يعد قادراً على الرعي.

- من يرعى أغنامكم الآن؟.

- أغنامنا..!

- ما بك يا صميدة.. أليس عندكم أغنام؟!.

- نعم عندنا ثلاث غنمات ومعزة.. وأمي ترعاها.

سأله فواز وهم ممددون في بطاطينهم:

- هل الشيخ مريض؟.

- لا.. إنه يعمل الآن في المقابر الجديدة التي أقاموها للجنود الأجانب، مقابل أجر شهري زهيد.

وأضاف بعد أن هدأت الأنفاس:

– والله أتمنى أن أريحه من عنائه، فقد كبر ولم يعد يحتمل السفر كل يوم إلى المقابر، أو تعب أيام الاحتفالات.

رد جويدة في أذنه من تحت الغطاء:

– إن شاء الله يا صميدة.. نَم الآن ولا تفكر في شيء، فأمامنا عمل شاق، فقد أخبرني المهندس أن العربات ستأتي في الصباح بحمولة كبيرة، وسنواصل العمل دون الحصول على فترة راحة، فهذه العربات تأتي تقريبـــاً مرة كل أسبوع.

*

القسوة التي تفرضها الصحراء على من يحيا بها، تمتد إلى بعض النفوس، فتتحجر المشاعر، خاصة إذا تعلق الأمر بالمال، فقد كان الحاج ناجي، يُحَصّل من الشركة عن كل عامل مبلغـــاً معقولاً نظير تأجيره لها، وما يصل إلى الواحد منهم في نهاية الأمر لا يوازي ربع ما قبضه، وهو لا يوفر لهم شيئـــاً.

هم الذين يحضرون طعامهم، وأغطيتهم، وملابسهم.

عمال تراحيل يعملون لغيرهم، منسيين وفاقدين لأرواحهم، رغم هذا تجدهم راضين، سعداء بما يصلهم في النهاية، فهم ينظرون دائمـــاً إلى أنهم أسعد حظـــاً من غيرهم ممن خلفوهم وراءهم في ديارهم، ولا يجدون عملاً غير الرعي الذي تقوم به النساء على أحسن وجه، فيجلسون في الهواء يهشون الغبار، وجيوبهم خاوية وباردة رغم القيظ اللافح.

والمقاول يبني بيتـــاً كبيراً من عدة أدوار على ناصية الطريق، بالطوب الأحمر والأسمنت، يطليه بالدهانات الزيتية، ويشتري الأجهزة الكهربائية، ليعمر بها معيشته.

ومثله قليل ممن توجهوا إلى الأسواق المجاورة على طريق السلوم، وجلبوا البضائع، وبنوا المحلات لعرض الملابس والأدوات من كل صنف. والناس من حولهم معظمهم يعيشون على حد الكفاف. وبعد أن كانت قانعة وراضية بعيشتها ورعيها، أصبحت تتطلع إلى ما تراه وتشاهده من حولها، واكتشفت فجأة أنها ليست وحدها في هذا العالم، وأنها مدفونة في الرمل منذ ولدت، فانتشر السخط بينها، أصبح التفكير في تغيير الواقع المعاش بجبروته الطاغي، أمراً لابد منه.

فكانت البداية أن توجهوا إلى تعلم الحرف البسيطة، والسفر إلى البلدان المجاورة لتفتيت الصخر، وعمل أي شيء يجلب المال في أسرع وقت، حتى لو اقتضى الأمر بعض المهانة، من أجل بناء المسكن أولاً، ثم يأتي بعد ذلك ما يطمحون إليه.

امتد لسان المناورات إلى البحر، فأسرت الغواصة الإنجليزية "اليزي" باخرة شحن إيطالية عليها بحارة ليبيون، وقادتهم إلى ميناء الإسكندرية، في الوقت التي تواجد فيه الطبيب "شاوصن" لاستقبال زوجته.

اكتشف قائد الميناء وجود مرض "التيفوس" في البحارة، فاستشار الطبيب الذي أكد ظنه.

بعد عرض الأمر على القوات فيما يتخذه بشأنهم، أمر بإعدامهم وكلف الطبيب للقيام بهذه المهمة وحقنهم بحقن الموت.

سيطر الفزع على البحارة، حاولوا الإفلات من تلك السموم الفاتكة، لكن الأغلال في أيديهم وأرجلهم كانت قوية، والأفاعي تحيط بهم، فأذعنوا واستسلموا لمصيرهم.

والطبيب يمر عليهم ويحقنهم واحداً تلو الآخر، تحسس خالد كيس نقوده، فكر في فتح طاقة يفر منها، دقق في وجه الطبيب وملامحه الميتة، نزل ببصره إلى رقبته فرأى نجمة ثمانية بارزة في سلسلته المتدلية التي تخرج من تحت ملابسه كلما انحنى.

كان يبحث عن ثغرة ينفذ منها إلى صدر الطبيب فوجدها.

في اللحظة التي وقف أمامه ليحقنه غمز بعينه له، واضعـــاً نقوده في جيبه، فنظر إليه مبتسمـــاً من تحت نظارته، نزع الإبرة من الحقنة، استمر في ضخ السائل على ملابسه.

أتى عمال التعبئة مكممين، شحنوا مائة وخمسة وعشرين جثة محقونة بالموت في أجولة، و"شاوصن" على مقربة يضع علامة على كل جوال.

*

تمكن "روميل" بالطائرات أن يبث الرعب في قلب "مونتجمري" في الفترة التي حاصره فيها، فالكثير من الطلعات كانت تصيب أهدافها بدقة وتعود سالمة إلى مواقعها، ومن طياريه من كان يقوم بعدة جولات في اليوم الواحد، وعلى نقطة بالقرب من الطريق الفاصل بين العلمين والضبعة هوى أحد هؤلاء، موجعـــاً قلب قائده عليه، جاء سقوطه

نتيجة لنفاد الوقود منه، شده سوء حظه وعدم تقديره لشيء ضئيل إلى مصرعه بعد أن حقق مائة وستة وخمسين انتصاراً جويـــاً.

*

تمركُز "مونتجمري" في العلمين بالقرب من ساحل البحر، سهل له الحصول على إمدادات من بلاده ومن فرنسا، جعلته يسترد أنفاسه وينفخ صدره، يعوض المفقود من العدة والأفراد.

ومشاركة القوات المصرية في مهاجمة "روميل"، من الناحية الشرقية جعلت الحصار يخف تدريجيـــاً، أعطته وقتـــاً مناسبـــاً ليدير لوحة "الشطرنج"، دفعته إلى رسم خطة للهجوم المضاد في وقت قياسي، يباغت به خصومه، يقلب كفة الميزان إلى صالحه، بعد أن أوشك على الاستسلام.

*

بعد أن استرد قوته، وضاعف المشاركون له قواتهم، عن طريق ميناء الإسكندرية على بعد مائة وسبعة وخمسين كيلومتراً فقط، وتوحيده لقوات البر والجو، إلى جانب زرع الألغام المضادة للأفراد والمدرعات، واستخدام اللاسلكي والراديو للمرة الأولى في تاريخ الحروب، وتدميره لخطوط المواصلات الموصلة لقوات "روميل".

وتحرك قائد الصحراء الغربية "الأميرالاي" محمد زكي بقواته، ليراقب تحركات الجيش الإيطإلي على الحدود الغربية في السلوم وسيوه، واشتباكه معها في قصف شتت تمركزها حول "مونتجمري" وقواته.

من أثر ذلك التدخل المصري هاجت ألمانيا، حطمت قبضة الكف طاولة الاجتماعات، قامت الطائرات النازية بمضاعفة غاراتها الجوية، على المدنيين والعسكريين حتى وصلت إلى ٧٠١ غارة متوالية، استشهد من جراها ٢٥٩١ عسكريـــاً، و٥٨١٣ مدنيـــاً.

*

وفي التاسعة وأربعين دقيقة من ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر فتح ألف مدفع بريطاني نيرانه على مواقع مدفعية ألمانيا وإيطاليا، كما صدت كل الهجمات المرتدة إليها، استطاعت

أن تعزل قوات "روميل " في الشمال، عن قوات "موسوليني" في الجنوب والوسط.

انسحب "روميل" تاركـــاً وراءه شريكه وجنوده بدون وسائل نقل فتم أسرهم بسهولة، وتقدم الجيش الثامن ساحقـــاً وظافراً، مخلفـــاً تحت عجلاته أكثر من ثلاثة وعشرين ألف قتيل وجريح، وثلاثين ألف أسير.

*

بعد أن انطفأت الشعلة، مات من طالته أسنان المدرعات وبطش الرصاص، وفُقد من ضل طريقه في لهيب الحشر، تاه وفَرَّ من هول النار من مسه شيطان الحرب.

المُعلن تسعون ألف روح صعدت إلى السماء متزاحمة، حجبت السحب، وغطت الأرض، أمطرت نحيبـــاً، خلفت وراءها من الألغام والذخيرة الحية ما يقدر على قتل أضعاف هذا العدد.

كل ذلك عندما سمعه عبد الرحمن، الشاب القوي، الذي فقد إصبعين من أصابع قدمه اليسرى وهو تائه وراء قلبه، خرج من أذنه كما دخل، راح يبحث عنها واضعـــاً سدادة في أذنيه، حتى لا يثنيه أحد عن إيجاد قلبه من تحت الأنقاض، ووسط الألغام، من بين حبات الرمل التي عُجنت بالدماء.

اختفت "دونا" دون أن يراها..

دون أن يشرب من بحرها الذي أغرقه..

دون أن تصب القوة في ذراعيه حين تُسلم عليه..

دون أن يُغلق جفونها للمرة الأخيرة..

دون أن تنـــزع مسامير ألمه..

تلاشت وتركته يغرق في محيط الألم، يستحضرها ويُعيد تشكيلها من جديد، ليُعَذب بها.

*

في الطريق المؤدي إلى المقبرة في منطقة "القصاصين" وقفت العربة التي تحمل جثث البحارة الليبيين، هبط منها الطبيب وأخرج خالد من جواله وتركه يفر، وضع مكانه لوحـــًا خشبيـــًا وأغلق عليه، أدسه بين الأجولة في غفلة من السائق ومن معه، ثم أخرج كيس النقود،و أحصاها مبتسمـــًا.

*

ركب الشيخ حمد حماره، واضعـــًا أمامه بطيخة كبيرة، ذهب إلى الشيخ عبد الرحمن و"كيوديني " في المقابر، أمسك السكينة وشقها إلى نصفين، دفع بها إليهما.

قال:

- تذوق يا "كيوديني" هذا الشهد.

أكل مستطعمـــًا الحلاوة على لسانه.

- من أين هذا البطيخ يا شيخ حمد؟!.

- من أرضي في "وادي الحديج".

سأل الشيخ عبد الرحمن:

- هل حصدتم اليوم؟.

- نعم.. كان المحصول جيداً هذه المرة.. المطر القوي أنقذنا، استمر عدة أيام.

سأل "كيوديني":

- هل ترونه بماء المطر فقط؟.

- نحن لا نرويه، فعندما يسقط المطر نرش البذور، ونتركها لتنضج وحدها.

- وماذا بعد ذلك؟!.

- لا شئ.. غير أننا نمر عليه من آن لآخر لرؤيته فقط.

قال الشيخ عبد الرحمن، قاضمــًا ملأ فمه:

- حلاوته ربّاني يا خواجة.

سأل الشيخ حمد:

- كيف حال أمواتك أيها العجوز؟.

- مطالبهم كثيرة يا حمد..

.. لو كنت أقدر عليهم كنت قتلتهم وارتحت.. المشكلة في

السجلات، كل عدة أيام يأتي مسئول من بلد ما، ويطلبها

للتفتيش والجرد.

- الدنيا مليئة بالأموات فلماذا كل هذا الاهتمام؟..هل ذلك سيعيدهم؟.

- لا أدري، إلى متى سيظل هذا الوضع.

- المقابر هنا أفضل من بيوت الناس الذين يجاورونها.

- هااه.. دنيا !.

*

لم يصدق خالد أنه نجا من الموت، بكيس نقوده الذي أخفاه في طيات ملابسه، جرى على الطريق بكل قوته مستنشقــًا هواءً يكفيه مئات السنين، حين أفاق من نشوة نجاته فكر في طريقة يصل بها إلى مدينته "بنغازي" بعيداً عن متاريس الجنود.

اتجه إلى القاهرة، تخفي بين الناس، محاولاً تلاشي النظر في الوجوه، خوفــًا من تَعّرف أحد عليه، كان هاجس الموت مسيطراً عليه، كابســًا على روحه بدرجة مخيفة، استطاع أن يحصل على وسيلة للوصول إلى أسوان. فهناك في الجنوب تنام العين مبكراً، ويستطيع أن يتخفي إلى بلده، بمساعدة السُمر الطيبين.

*

الغزالة التي أصابتها الطلقة في رأسها كانت تلد، وضعت واحدة، والثانية أول شيء رأته في الدنيا وجها القاتلان ليلتقطاها بأيديهما ويداعباها.

وضع تامر الأم في صندوق العربة، وحمل "جون" الصغيرتين على ذراعيه فرحـــاً.

علا صوت الحديث بينهما وهما عائدان إلى الموقع، لمح تامر الثعلب شاخصـــاً في عينيه في تحد، ضغط بشدة على البنـــزين، دخل في مكان وعر، حاول تفادي صخرة سدت عليه ملاحقته، عرج الإطار وأيقظ لغمـــاً كان في ثباته الطويل، منتظراً لتلك اللمسة.

صاروخ الانفجار المدوي حمل العربة، جعلها تتقافز مثل ضفدع كبير هارب، طارت بهما في الهواء، ألقتهما بعيداً والغزلان فوقهما.

تخدر جسداهما من الرهبة وصوت المارد المضغوط في اللغم، وهو يتحرر من حبسه، أصم آذانهما في خروجه، بعثرهما بقوته المنطلقة في الجو.

تحسس تامر نفسه وقام يشد ظهره، مشى إلى "جون"، وجده فاقداً للوعي والدماء تنهمر من كفيه.

*

قضت الجِمال وقتـــاً طويلاً، ترعى حول البريمة، وتراقب ما يتم من عمل، اطمأنت إلى أنها آمنة، وأن تلك المخلوقات التي تَكِدُّ لا تبغي إيذاءها، فهم لطاف وطيبون، يداعبونها في رواحهم وغدوهم والابتسامة على وجوههم، لم يُسمع منهم أصوات ضرب وانفجارات، ولم يُشاهد معهم مدفعـــاً أو دبابة أو قنابل، تلك الأشياء الغريبة التي كان يتحدث عنها كبيرها، وهو يحكي عن الجنود الذين عاصرهم، وكيف كانوا يحيلون النهار إلى ليل أسود بسحبهم، والليل إلى نهار أحمر ملتهب بالنيران، أكلوا من القوافل عدداً لا يحصى، قضوا على أفواج كبيرة من أنفسهم، وظلت جثثهم لفترات منتشرة في الصحراء جالبة السباع من جميع البقاع، مخرجة رائحة نتنه، منفرة تبعدها عن مراعيها.

حرك الكبير رقبته في الهواء، سحب عظامه وقام، فقاموا خلفه، تقدم القافلة التي اصطفت وراءه، جرت خلفه في حركات راقصة. قال:

– هيا نعود، فالشيخ في انتظارنا.

في عودتها مال كل اثنين منهما على بعضهما، شبكا رقبتيهما، خبطا جسميهما مقتربين ومبتعدين، في بهجة وانسجام.

انتشرت أصوات الطيور المحلقة فوق رؤوسها، وحطت على أسنامها الدهنية المرتفعة، فاهتزت، بدت من بعيد ككرات مطاطية معبأة بهواء يرفعها ببطء شديد.

كان رقصها أشبه بحركات ناعمة على الإسفنج، وهى تغنى وتتمايل عائدة إلى راعيها، الذي لم تره منذ وقت طويل.

*

(١٠)

لم يكن "جون" بهذه الصورة التي يبديها لزملائه في البريمة، من عدم اهتمامه بالصحراء، أو بما دار بها من قبل، فدائمـــاً يكون للأجانب تصور كامل عن المكان قبل أن يلمسوه بأقدامهم، ويكون الأمر مدروســاً لهم بعناية فائقة، قبل الاهتمام بالعمل نفسه، فتواجدهم يعني امتداداً لتواجد آبائهم و أجدادهم، وإن اختلف الشكل، فكثيراً ما يختفي عن الأنظار لساعات مصطحبــاً معه أحد العمال من البدو، يجوب في الصحراء طولاً وعرضـــاً، راسمــاً أشياء كثيرة في أوراقه، وحين تحدث إليه أحد الزملاء عن صميدة، وأخبره أنه كان يرعى الجِمال في متاهات الصحراء قبل أن يأتي مباشرة، حتى أن تلك القافلة المرابطة جانب المعسكر تعرفه جيداً، وتقف له فرحة عندما تراه.

أخذه معه في سيارته ليدله على الأماكن التي تتواجد بها الذخيرة المتبقية من الحرب، والتي ما زالت في أماكنها حتى الآن.

يرجع صميدة إلى ولي نعمته، ويخبره بما فعله الخواجة.

وكان تامر يشعر من آن لآخر أن عليه واجبــاً ما، ولابد أن يرى ما يفكر فيه هؤلاء الأجانب العاملون معه، مجرد فضول لا أكثر ولا أقل.

دار ذلك في رأسه وهو يفكر فيما حدث، وما سيحدث عند وصوله إلى البريمة، لحظة

طيران خبر الحادث إلى الإدارة.

*

طُلب من "كيوديني" الإيطإلي المشرف على مقبرة العلمين، أن يُحضر جثة مائة وخمسة وعشرين جندي ليبي من قتلى الحرب من منطقة القصاصين.

ذهب وبحث مع القائم عليها الذي أخرجها له.

عاد بشحنة الموت، كل جثة في داخل جوال مربوط. فجأة أكتشف أن جوالاً تحولت جثته إلى لوح من الخشب. حار في الأمر وعجز عن حل لغزه، فقذفه بعيداً.

في عودته ظل يفكر تائهـــاً في الأمر الغريب الذي لمسه، وكيف تم ذلك، شك في نفسه، نـــزل من العربة، أعاد عَدّ الجثث مرة أخرى، فربما يكون قد أخطأ، لكنه استسلم حين شعر بملمس اللوح الخشبي الخشن الذي رماه ما زال عالقـــاً في أصابعه.

*

بعد أن هدأت نار الحرب، بدأت حرفة جديدة تظهر في الصحراء، صار لكل من يكتشف جثة قتيل مفقود ويخلصها من بين الألغام مكافأة مالية في انتظاره، يقبضها بمجرد تسليمه للجثة، وكان راغب القابس قد أتى إلى الضبعة مع عمه وأولاده هربـــاً من تونس، اندمجوا مع البدو لسنوات طويلة.

مرت عليه فترات من الجدب التي تصيب الرمال فيصل جفافها إلى الحيوان والطير والبشر، ويصبح الحصول على لقمة للفم منالاً من الصعب تحقيقه.

خرج ينقب بين الألغام عن جثة، ليأكل من وراءها، مستخدمـــاً فرع شجرة جاف، يُقلب به الرمل ويغرسه في الأماكن الصلبة.

وقت طويل مضى ولم يعثر على شئ.

عاد هائمـــاً حزينـــاً لاصقـــاً وجهه في الأرض.

في طريقه لمعت في عينيه سلسلة بها قرص يحمل اسمـــاً لجاويش، عرف أنه أسترإلي من كثرة ما رأى من قبل، فرح به، لكنه حار في أمر الجثة، نبش أظافره في شعره

وابتسم.

بلا تردد ذهب إلى قبر عمه وفتحه، ألبس الجثة رداء جندي كان قد عثر عليه من قبل، وعلى ذراعه وضع ثلاثة أشرطة ليبدو جاويشــًا حقيقيــًا، لف عنقه بالسلسلة التي عثر عليها، وقف أمامه، حياه التحية العسكرية مبتسمــًا، فأخيراً سيصيب بعض المال ليقتات به. قال:

– أخيراً سترقد في مكان يليق بك.. هيا بنا إلى الجنة.

*

فوق هرم صغير، يقترب ارتفاعه من ثلاثة أمتار، حوائطه من الأحجار الجيرية البيضاء، حلقت طائرة ألمانية صغيرة، تحمل علمــًا أبيض، نثرت الورد الأحمر من سماءها، لفت حول الهرم عدة مرات، متذكرة الطيار الذي صُرع تحتها مباشرة عندما نفد الوقود من طائرته فهوت به، وأقام له قائده نصبــًا تذكاريــًا في مكان الحادث، ونقش على لوحة رخامية تفاصيل ما وقع للفتى الشجاع الذي لم يُقهر "هانز يواخيم مارسيل"، وألصقها في وجه الهرم.

في كل عام تأتي طائرة أخرى بما تبقى من عائلته، يلقون الورد، وبذور البنفسج، ويسحون الدمع من شباك الطائرة لريه ري المطر، يتركون أمامه شمعة مضاءة، وبعض الصور الضوئية لما كُتب عنه، متضمنة صورة له وهو متكئ على جناح طائرته.

*

(١١)

العمل في البريمة منضبط وصارم إلى أقصى درجة، لأن التعامل مع الحديد الذي يخترق الأرض الساخنة، بصخورها الصلبة التي تقاوم ما يخترقها يتطلب الدقة والحزم تفاديــًا للكثير من المشاكل والحوادث، التي من الممكن أن تنجم عن الإهمال أو الخطأ، فعملية الحفر هي نوع من الحرب، مواسير البريمة الفولاذية تتسلل إلى الباطن، بعد ذلك تمتص البترول منها، وذلك لا يتأتى إلا إذا استطعت أن تتغلب عليها، تتفهم طبيعة صخورها وتعاملها بما يناسبها.. فالأرض امرأة عنيدة الرأس تتطلب المهادنة والخداع أكثر من القوة والصراحة، حتى تتركك تأخذ منها ما تريد.

*

والعاملون يبذلون كل طاقتهم وخبرتهم من أجل الحصول على أفضل النتائج الممكنة، ومع تلك الجدية والحزم إلا أن الآلة تأبى أن تطيع في بعض الأحيان، فتتمرد على محركها وتصيبه بالعطب، وأحيانـــًا ترمي ما تستطيع أن تفصله عنها، فقد انفلت ذراع حديدي ضخم، به قوة عزم هائلة، اكتسبها من دورانه مع مواسير الحفر، ارتد إلى صدر أحد عمال الحفر المتواجدين على المنصة العلوية، وفاجأه بهجومه.

صوت الارتطام كتم صرخته في جوفه وألقاه من ارتفاع عالٍ فوق المضخات الحمراء.

خبطة وسقطة رهيبة كهذه لا يحتملها لحم وعظم، أودت به إلى غيبوبة، ما زال فيها منذ أكثر من ستة أشهر.

أصابه تهتك في العظام، تمزق داخلي، انفجار رئة، ارتجاج مخ، عجز تام هو أقل ما توصف به حالته إذا قُدر له أن يعيش.

الأطباء ينتظرونه أن يعود من تحت أقدام الموت بمعجزة.

قرروا أنه لابد من علاج خاص، بأجهزة ليست متوفرة، وطالبوا بسفره.

ولكن كيف، ومن يتحمل العلاج والسفر وهو يعمل بعقد مؤقت، والخبثاء الذين لا يخلو مكان منهم يفكرون في إنهاء عقده، واختلاق سبب يبين أنه المخطئ ويستحق الطرد بدلاً من العلاج.

*

مرت العربة بأرض متربة، تطاير الغبار وفرش نفسه على الزجاج، فطردته أذرع المَسَّاحات ونثرت الماء خلفه، نزل عبد المطلب فوجد الأبواب غارقة، تحجب ما بداخل العربة.

مَدَّ سبابته اليمنى، رسم خيمة بجوار برج البريمة، وجمل نائم بسنام واحد، ونخلة. نظر خلفه، يستطلع وقع الأقدام، شاهد جويدة وصميدة وفواز يدققون النظر فيما رسمه.

وعندما تلاقت الأعين واستشفت الصفاء والحب في تعامله معهم، صفقوا له.

نظر في ساعته، استطال غياب تامر و"جون"، فأخذ جويدة معه، وخرجا يبحثان عنهما.

*

سنوات مرت وعاد خالد بسيارته اللوري القادمة من "بنغازي"، بدأ يقرأ الفاتحة على أرواح القتلى من أبناء وطنه ويتلفت حوله.

حين رأى "كيوديني" على مقربة منه، ذهب ليسأله عن جثث قتلى

"القصاصين"، وعن جوال معبأ بلوح خشبي.

لمعت الفرحة في الوجه الأبيض المجعد، عندما اقترب منه واستمع إلى حل اللغز الذي أوقفه وحيره منذ فترة.

قال:

- أنت اللوح الخشبي.. أعني أنه قد وُضع مكانك.

- نعم..

- لكن كيف هربت وعدت إلى بلدك، والجنود منتشرون في كل مكان.

- قابلت إعرابيـــاً اسمه "راغب" على ما أذكر، كان يرعى أغنامه على مقربة من الطريق، اختبأت عنده عدة ليال حتى أوجد لي طريقة للهرب.

- متى رجعت إلى دارك؟.

- عدت إلى موطني وأنا أسابق الهرب لأكثر من ثلاثة أشهر.

- تجربة صعبة.

- أصعب ما فيها الموت.. فحين تعرف أنك واقف أمامه تكتشف أنك لم تعش، وأنك لم يمض عليك في الحياة إلا ثوانٍ فقط، وتتمنى لو استطعت أن تؤجله قليلاً، لترى الدنيا بوجه آخر غير الذي عشته.

- معك كل الحق، الوقوف على باب الموت يجعلك تكتشف أنه لا جدوى من الحياة

أصلاً..

تحركت دمعة ساخنة من أعماق "كيوديني"، سَحّت الألم على وجهه واعتصرته، عاد بذكرياته يسبح في أمواج البحر الأبيض المتوسط، وقف على الشواطئ الإيطالية، خلع ملابسه المبللة، تمدد على الرمل، ومن حوله يلهو أطفال مع ولديه، وزوجه الشقراء، حررت صدرها، تمددت عارية معطية ظهرها للشمس، نامت..

مسح حياة عريضة ممتدة الجذور بجرة أصابعه على خده، قال:

.. الرحمة أننا نموت بغتة، دون أن نعرف موعدنا..ذلك يجعله هينـــاً، رغم الفجيعة التي تصيب من يعرفوننا.

خرج من انفعاله، نادى على الشيخ عبد الرحمن، وضع يده على كتفه، سارا معـــاً إلى الكنبة، تحدثا بفرح طفولي، داعين خالد إلى كوب من الشاي، وهما يتفرسان في ملامح وجهه المدهوش.

وقع بين فكي الضحك والأسى حين وجد اسمه مدرجـــاً في سجل الموتى.

*

(١٢)

جلس تامر على ركبتيه محاولاً استيعاب ما أمامه، تنبه إلى الملقى على الصخر، أسرع يجفف خيط الدماء الممتد كثعبان خرافي على وشك أن ينقض عليه.

ازداد وجهه عرقـــاً وسخونة.. نبهه الانفجار إلى أنه في ذلك المكان للعمل وليس للنـــزهة والصيد.

وقف يفكر في طريق للعودة، تمنى أن يلمس طوق نجاة ينتشله من غرقه في الصحراء الواسعة، لا جِمال ترعى، لا طير يمر، لا حشرة تظهر، لا شيء قادر على محو ما حدث، هاجمته وحوش الهواجس، هبطت ساقاه على الأرض، رأى نملة تخرج من جحرها، تتحسس الأخبار، تراجعت مسرعة وعادت بأخرى، وظهر بعدهما كتيبة استطلاع، انتشر أفرادها في كل الاتجاهات، قذفها بحبات رمل، نام على ظهره، متسائلاً بصوت عال:

".. هل أحفر الرمل وأدفنه؟

هل أتركه وأهرب؟

هل ألقى باللوم عليه؟

هل يتحرك عبد المطلب لنجدتي؟.."

نشط حبل الواقع، أيقظه على أنه لا مفر، رغم كل الاتساع الذي أمامه.

حاول إصلاح العربة فدارت معه بعد أن بَدّلَ إطارها المنفجر، كانت إمكاناتها قوية لتتناسب الصحراء، وكان اللغم صغيراً من النوع المضاد للأفراد.

*

حين أفاق "جون"، وقعت عيناه على سحابة سوداء تمر ببطء، لم يشعر بذراعيه، أدرك أن كفيه بدون أصابع، أستنشق شطه الهستيريا، صار يهذي متألمــاً، مستسلمــاً لمطارق الوجع، مغلقــاً عينيه على حياته القادمة، مرتديــاً قفازاً أسود، يسير في شوارع لندن، يتطلع في الأشياء فاقداً القدرة على لمسها.

وتامر على عجلة القيادة عائداً إلى طبيب البريمة، يفكر فيما سيحدث في الشركة حين يصلها النبأ.. بالأحرى يتتبع الشريك الأجنبي وهو يُصعد الأمور إلى أزمة كبرى من خلال سفارته..

هز رأسه، استسلم لسحب العربة له، وهو مخدر أمام الهواجس التي ضغطت عليه، وجعلت السواد يُطفيء النهار ويدفنه تحت الرمل الملتهب، وعيناه تدوران في المدى الواسع حوله تبحثان عن مخرج.

****

ما يقرب من سبعين كيلومتراً مربعــاً هي كل المنطقة التي تم مسحها من مساحة تقدر بآلاف الكيلومترات مزروعة بالألغام، لأعمال البحث والتنقيب عن البترول، التي تقوم به شركات أجنبية بمشاركة شركات وطنية، في جو قلق وحذر من خطورة المكان، مع رسم مسار للعاملين لا يحيدون عنه أثناء عملهم، تحسبــاً لأية مفاجآت تحدث، وها هو

الجيولوجي تامر يفجر المحذور، ويزحم الموقع بأفراد الأمن، ومسئولين من عدة جهات، للوقوف على تفاصيل الحادث، الذي يحدث مع البدو يوميـــاً دون أن ينتبه أو يتحرك أحد، ويتم التعامل مع ما يقع بالتجاهل كأنه أمر طبيعي، وأنهم هم المخطئون لأن القليل منهم يجهلون خطورة ما بين أيديهم، عندما يجدون موقعـــاً به بقايا الذخيرة الحية، يأخذونها، ويدقون عليها بمطارق حديدية، محاولين إفراغ البارود منها، واستخدم الهياكل في أشياء مختلفة، فتخرج المردة من صناديقها وتنفجر فيهم.

*

مر أحد الرعاة على قبر العم الخالي، فذعر وجرى تاركـــاً وراءه أغنامه وكباشه. ذهب إلى أبنائه الأربعة ليبلغهم أن قبر أبيهم نبش وسرقت جثته.

بكى الأولاد، وبكى راغب، تركهم انصرف إلى عمله.

ذهبوا إلى القبر فوجدوا آثار أقدام لرجل وحمار فتتبعوها، وبعد أكثر من خمسة وعشرين كيلومتراً وصلوا إلى المقابر الرخامية.

سألوا "كيوديني":

– من الذي أتاك بجثة على حمار؟.

– انه راغب.

وفتح لهم المقبرة وأخرج بقايا أبيهم في حالة جديدة، على صدره أوسمة الفيلق التابع له، وحول عنقه إكليل من الزهور.

نظروا إلى بعضهم مترددين، ثم جردوه من ملابسه وعادوا به ليدفنوه من جديد.

*

أمام المأمور "البكباشي" وجدي خليفة وقف "كيوديني" وأبناء الميت الأربعة، وابن عمهم راغب، الذي دافع عن نفسه بأن عمه أوصاه بدفنه، وأن الأبناء مقصرون في حق أبيهم. فالقبر الذي دفنوه به لا يصلح لدفن حيوان، بينما دفنه هو في مقبرة رخامية تليق به، وتحت إشراف ثلاثين حارســاً، كما يضاء على قبره في الليل مصباح، يشع ضوءه على

أشجار خضراء تعلو شاهده، وصرخ فيهم قائلاً:

- أدخلته الجنة، فهل هذا جزائي.

ضحك المأمور وزعق فيه:

- اسكت يا نباش القبور، ألم تجد غير عمك لتبيعه.

*

في التحقيقات التي أجريت مع الجيولوجي تامر، حاولوا أن يصلوا إلى حقيقة ما حدث، فقد ارتابوا فيه، ظنوا أن الأمر مُدبر.

وكان دافعهم إلى ذلك الاتجاه أنهم وجدوا في "كرفانه" قطع الذخيرة التي أحضرها من بقايا المعركة، ووجدوا في مكتب "جون" كتاباً صدر حديثاً، يتناول بالتفصيل حياة "مونتجمري"، ووقعوا على فقرة فيه تحتها خط أحمر بارز، مكتوبة عن وثيقة كتبها القائد، وأعلنها مكتب الوثائق العامة في بلده بعد فترة طويلة من الاحتفاظ بها في طي الكتمان.

الوثيقة عبارة عن خطة عبقرية قدمها بطل الحرب لحكومة العمال حينئذ لتحويل قارة أفريقيا إلى ثلاثة اتحادات فيدرالية يسيطر عليها البريطانيون، ووصف الأفارقة بأنهم همجيون بشكل مطلق، وغير قادرين على تطوير بلادهم.

جاء في المشروع المكون من ستة وسبعين صفحة أنه طالب بأن يكون الحكم الأبيض لمصلحة بلده التي يجب أن تستفيد من الثروات الطبيعية والبشرية للقارة السمراء. وتقضي الخطة التي أعدها المارشال الإنجليزي بعد جولة في أفريقيا استغرقت شهرين - بعد انتهاء الحرب - بزيادة أعداد البيض في القارة وعدم الاهتمام ببيانات الأمم المتحدة عن حق تقرير المصير للشعوب..

ارتاب المحققون أن يكون تامر قد اطلع على الكتاب، فدبر الانفجار..

حتى إن لم يكن ذلك حقيقياً فلابد لهم أن يتخذوا إجراءً قوياً، لإرضاء الطرف الآخر، لاتقاء الأهوال التي من الممكن أن تحدث، تصل في مداها إلى الإتيان بالجيوش مرة أخرى، وإعادة الاستعمار إلى صورته الأولى.

*

(١٣)

انطلقت الأبواق العسكرية لتمزق سكون الصحراء، تُنبه الراقدين في القبور والمفقودين تحت الرمال، إلى أن بلادهم ما زالت جادة في الترحم عليهم، والاحتفال بذكراهم كل عام، والإشادة بما صنعوه من بطولة أعطت لكل إنسان يعيش في إنجلترا الحرية.

أتى ضمن هؤلاء طيارون معاقون، منهم الإيطالي "فيورولوري" قائد الرحلة الذي شارك في القتال، واثنان من شباب الجيل الحالي هما البريطاني "تيم اليسون" والألماني "ريتهولد جمبرليتي"، قدموا عروضـًا جوية بطائراتهم الصغيرة فوق المقابر، بعد أن طوروا فيها لتناسب إعاقتهم، وكانوا قد استقلوها وبدأوا الرحلة من "روما" إلى "باري" إلى جزيرة "كريت" التي تبعد عن ساحل مطروح حوالي خمسمائة كيلومتر، هبطوا في مطروح ومنها إلى مطار صغير قرب العلمين، قاطعين أربعة عشر ساعة طيران لحوالي ثلاثة آلاف كيلومتر.

فوق العلمين طاروا على مستوى منخفض مرتين، ودفعت طائراتهم دخانـًا بألوان أعلام الدول الثلاث، اختلطت في الهواء في محاولة للتقارب بينها، والتخلص من آثار المعركة، مُستهدفين توضيح المصالحة بينهم، بعد أن كانوا يحاربون بعضهم البعض.

*

عاد الشيخ عبد الرحمن إلى داره والابتسامة لا تفارق وجهه، قابلته زوجته مستغربة من حاله. سألته:

- ماذا بك يا رجل؟

علت ضحكته وهو يتجه إلى الكنبة، جلس عليها، بدأ في خلع ملابسه.

قال:

- ليتك رأيت احتفال المقابر اليوم، شئ ولا في الأحلام، الناس من كل الدنيا هبطوا علينا كالمطر، من نساء، أولاد، رجال، بنات، وكهول.

- وهل هذا يضحكك، هذا يحدث كل عام، فما الجديد؟!.

- معكِ حق.. فأنتِ لم ترى ما رأيته.. اجلسي بجانبي وسأخبرك.

تذكر حالته التي دخل بها، فعاوده الضحك، أخبرها بالمفاجأة التي تدفعه إلى ما هو فيه.

فبينما الناس في خشوع أمام قبور الضحايا، تصافحت سيدتان على قبر لجاويش فرنسي يدعى "نومار مارميس".

جاءت الأولى مع ابنتها لتضع زهرة على قبره، ففوجئتا أمام قبر العزيز الراحل بسيدة أخرى وشاب عمره عشرين عامـــًا، وفتاة في مثل عمره، وجدتهم راكعين أمام القبر مستغرقين في بكاء مر.

سألت السيدة الفرنسية السيدة الأخرى، وهى يونانية عن سبب بكائهم على القبر الذي يضم رفات زوجها. وصرخت اليونانية وأغمى عليها، أسرع أكثر من زائر لاستطلاع مصدر الصوت.

وأفاقت وعرفت كل شئ، اكتشفتا معـــًا الخدعة التي كانتا فيها.

فقد تزوج في بلده وأنجب، وحين جاء للحرب تزوج من اليونانية.

*

ركب خالد الليبي عربته اللوري التي يعمل سائقـــًا لها، على الخطوط الدولية، بين أسيا وأفريقيا، يبدأ رحلته المحملة بالبضائع من "بنغازي" إلى الإسكندرية، ومنها إلى بورسعيد، ثم يعبر قناة السويس إلى سيناء متجهـــًا إلى الأردن وعمان وسوريا وفلسطين ولبنان. بعد انتهاء رحلته يسلك نفس المسلك راجعـــًا إلى بلده.

رحلة عمل شاقة، يقابل فيها من الوجوه والبشر ما لا يحصى، ولا شئ يبقى في ذاكرته من كل هؤلاء.. وجه واحد فقط محفور بإزميل في رأسه، يتوقع أن يراه في كل المسالك التي يسافر خلالها.

أخبر "كيوديني" والشيخ عبد الرحمن أن شكل الطبيب الذي أخذ منه المال وساعده في الهرب من الموت، مطبوع في ذاكرته كمعدن السيليكا حين تنفذ في عروق الخشب وتتركه

متحجراً كحفرية من حفريات الزمن السحيق.

"كان قد استفسر منهما عن قطعة الصخر الغريبة، التي على شكل جذع لشجرة قديمة، تلك التي يجلس عليها حارس المقبرة".

أخبرهما أنه في كل رحلاته يدقق في الوجوه، لعله يتعرف عليه.

سأله الشيخ:

- لماذا عدت الآن لتزور إخوانك؟!.

- في الحقيقة، إنني فكرت في هذه الزيارة منذ أن انتهت الحرب، ولكن.

- لكن ماذا؟.

- الفكرة كانت ترعبني، دائمـــاً كان لدى شعور أنهم ما زالوا موجودين.

- رغم مرور كل ذلك الوقت !.

- نعم. والسبب الذي جعلني هنا الآن أنني كنت في رحلتي الأخيرة في فلسطين، أُوصل بضائع باللوري، وهناك رأيت شخصـــاً يشبه الطبيب، يقف في حجرة صغيرة على مقربة من المتاريس الحديدية، نزلت من العربة واتجهت إليه، وقفت على الباب لكن الجنود منعوني، أشهروا السلاح في وجهي، وأمروني بالانصراف.

سأله "كيوديني"، والدهشة تعلو ملامحه:

- أي طبيب؟.

- ذلك الذي حدثتكما عنه، رجل يشبهه تمامـــاً، ولكنني عندما اقتربت منه لم يكن هو، وفي طريقي طوال تلك الرحلة كان كل رجل يقابلني أعتقد أنه هو، أيقظ صوت الرصاص في أذنيَّ، أعاد ذكرى الموت إلى، قررت أن أزور رفاقي، الذين تركتهم ورائي، وفررت بنفسي.

انخرط خالد في بكاء، ألجمه عن الكلام. اقترب منه الشيخ، مسح على ظهره.

قال:

- هون عليك يا أخي، لم يكن بمقدورك أن تصنع لهم شيئـــاً.

*

أغنام الراعي التي تركها ترعى، وذهب إلى أبناء العم ليخبرهم باختفاء جثة أبيهم، قطعت مسافة واسعة في تحركها، وصلت إلى وادي "الرويسات" قضمت منه، ونامت على جوانبها، تستريح من رحلتها الطويلة، فقد انشغل عنها راعيها بأمر العم المختفي، وجدتها فرصة لتأخذ راحتها، تنطلق بحرية لتلعب في مراعيها، بدون عيون تراقبها.

وقفت الأغنام في صف والكباش في صف آخر، بدأوا اللعب والرقص والغناء والمناطحة، تفرقت الإناث وجرت لتختبئ خلف الصخور، والكباش تفتح أعينها وتبحث عنها بفرح.

كانت الطبيعة تتنفس وتصحو من ثبات أرغمتها عليه تلك القنابل النائمة تحت الرمل.

تسلل كبش إلى مخبأ، رأى رأسه في زجاج أمامه، وقف وتراجع إلى الخلف متحفزاً.

كان ذلك الزجاج عبارة عن لوحة تغطي أجهزة تفجير ومشاعل الطوربيد الذي زرعه الجنود ولم يُفجر في حينه.

خيل للكبش أن الآخر يتحداه، فانطلق بقرنيه نحو الزجاج، ليفك أسر المارد الأسود، فيخرج مدويـــاً، ممزقـــاً سكون الصحراء إلى قطع ملتهبة، ترتفع سحابة سوداء تظل في الجو لفترة طويلة.

*

رجع الراعي من الجنازة الثانية للعم، بحث عن أغنامه حيث تركها، إلى أن وصل إلى الوادي البعيد، أبصرها واقفة في صفين، تنبش الرمال بحوافرها، تنتحب في حدادها على الكبش الممزق.

حين شمت رائحته انطلقت إليه، وألقت حزنها بين ذراعيه.

*

تشاور الشيخ عبد الرحمن مع "كيوديني" في حجرة داخلية لفترة طويلة، شرب خالد على أثرها الشاي أربع مرات، في النهاية قررا تسليمه متعلقات رفاقه، ليحملها إلى ذويهم في ليبيا بعد أن يوقع في السجل نيابة عنهم.

قال خالد للشيخ والدمعة تفر من عينيه:

-لا شيء يجلب التعاسة والحزن أكثر من حمل الذكريات الأليمة في

صندوق القلب الخفي، فما بالك بسفر تلك المتعلقات إلى جواري

في العربة.

-تظل أرواح المفقودين في بحث دائم عمن يحمل أثراً لها إلى فاقديها،

حتى يهدأ التخمين عن المصير الذي آلوا إليه.

-لكن بشاعة الواقع لا تحتمل.

-مهما كان فإنه أرحم من الفقد التام، وعدم المعرفة.

انطلق بالعربة على الطريق الساحلي، على الجانب الأيسر الصحراء بما تضخه في أنفه من رائحة نفاذه، وعلى يمينه البحر الهائج، تداعبه أمواجه وتعيد إليه حياته في السفينة مع الرفاق الذين لم يتبق منهم سوى ما يرقد إلى جواره، عيناه على البيوت التي ستصلها تلك البقايا.

*

(١٤)

في الفترة التي تسبق الاحتفال السنوي، يقضي الشيخ عبد الرحمن فترة تقترب من الشهر، مصاحبـاً ومقيمـاً مع المشرف "كيوديني"، في تنظيف وتجهيز المقابر، بعدها يرش الطرقات بماء معطر، وفي ذلك الوقت تعود الذكرى لتطل من عينيه ببريق أخاذ يفضحه، فيداعبه، يذكره بما سمعه منه من قبل عن الجميلة "دونا ماكسويل".

علق "كيوديني":

- أراك تعتني بعملك هذه المرة.

- ليس هذه المرة فقط، كل مرة أفعل أفضل ما يمكنني، دائمـًا يراودني الأمل في رؤيتها، أو أسمعها تهمس لي من قبرها، فكل قبر أمر عليه أعتبر أن هناك خطأ قد وقع، وأنه قبرها..

.. هي وحدها التي أتت بي إلى هنا.

-رغم حياة الصحراء الجافة التي تحيونها، إلا أن قلوبكم خضراء ندية.

أضاف الشيخ وقد وصل به التأثر إلى منتهاه:

- أراك تعجز عن مساعدتي أيها العجوز "كيوديني".

- لقد بحثت لك في كل السجلات حتى الآن أكثر من خمسين مرة.

- مرة أخرى، لأجل صداقتنا لا تبخل عليَّ.

يجلس إلى جانبه وهو يطالع الدفاتر والسجلات، يقرأ له أسماء أصحاب القبور والمفقودين.

وتنتهي السطور دون أن يصل اسمها إلى أذنيه أو اسم الطبيب "شاوصن".

تحمله أجنحة الحيرة، تحلق به في الماضي البعيد، وتستحضره ليراها أمامه، ترفل في ثوب وردي شفاف، يحاول الإمساك به، فيهرب الهواء من بين أصابعه، ويتركه يصارع السقوط على أشجار الصبار المتوحشة، وهى تقاوم الجفاف، وتنتـزع ماء حياتها من الصخر الصلد.

*

اختفت "دونا ماكسويل" في الفترة التي اشتعلت فيها نار المعركة، تاهت بين التائهين أو فُجرت أو هربت إلى بلدها، هذا ما لم يستطع عبد الرحمن أن يعرفه، فبعد أن عم الخراب،

وتناثرت الجثث لم يجد أحداً ليجيبه عن تساؤلاته، أو يرشده إلى قلبه التائه بين الأموات، وما زال من حين لآخر ينفخ في كور ذاكرته، محاولاً إشعال جذوة العشق في صدره، غير عابئ بما فات وولى من عمر، تاركـــًا آثاره على وجهه وجسده.

*

ظل الأمل يراوده في العثور على شئ يدله عليها. بالأمس دخلت سيدة إسكتلندية إلى "كيوديني"، الذي خرج معها، أرشدها إلى الطريق وتركها، طافت بين القبور تبحث عن زوجها "الميجور شاوس" فعثرت عليه بين ٧٨٩٢ قبراً.

رجعت إليه، وسألته:

- هل تحتفظ المقبرة بالحاجات الشخصية للمدفون بها؟.

- نعم.

دخل الأرشيف، تناول ملفـــًا، ثم دلف إلى مخزن لم يُفتح منذ زمن طويل، خرج بلفافة مكتوب عليها رقم الزوج، ورقم وحدته، واسمه، وبها قميص "كاكي" مثقوب برصاصة وملوث بالدماء السوداء المتحجرة، وحزام به مطواة، ومفاتيح وبايب وصليب.

التقطت القميص من يده، راحت تتحسسه، تتشممه، تدس يدها في جيوبه، بدت كأنها تبحث عن شئ ضائع، أو شئ يدل على تذكر زوجها لها.

فجأة توقفت، صاحت صيحة الفرح، إذ عثرت على أوراق في جيب القميص المهمل تضم قسيمة زواجهما، وحجة منـــزلهما الضائعة منها، وقد استحوذت حكومتها على بيتها لفقدان هذه الحجة.

قالت بسعادة غامرة، وهى تعتصر القميص بين أصابعها، وتنظر إلى السماء شاكرة:

- هذه الأوراق المنسية تساوي قيمة منـــزلي الضائع.

سألها الشيخ عبد الرحمن:

- وكم يساوي منـــزلك؟.

- أكثر من نصف مليون جنيه.

*

في انفعال أخرج رئيس الشركة ملف خدمة الجيولوجي تامر، مزقه في حضور مدير عام الشئون الإدارية.

أُوقف عن العمل لحين استكمال التحقيقات مع الجهات الأمنية المختلفة.

وسافر "جون" إلى بلده بعد أن حصل على اثنين مليون دولار كتعويض مبدئي عما حدث له، بعد أن صَعّدت سفارته الأمر إلى مستوٍ عالٍ، وطالبت بالقصاص ممن تسبب في الحادث، أوكلت محامياً في بلدها للمطالبة بحقوق المصاب، بما يتناسب مع عاهته، وفقده لأصابع يديه، مشيرة إلى بوادر أزمة كبرى.

*

(١٥)

جلس الشيخ عبد الرحمن في المقابر، متكئاً على عصاه، دخل عليه صميدة، احتضنه، قَبَّل يده وجلس بجانبه.

قال:

- ماذا بك يا ولدي؟.. هذه أول مرة تأتي إلى هنا.

- يا أبي أريد أن أفاتحك في شئ.

- تكلم يا بني.

- أرى أنك كبرت الآن، وأريد أن أريحك.

- وما يشقيني يا ولدي، راحة الإنسان دائماً في العمل إلى أن يموت.

.. الراحة هي أن تحس بتعب الحياة، فحين تصبح حياتك خاوية

تصبح بلا فائدة، والكل يترقب رحيلك، تشعر أنك ثقيل

على الدنيا.

- كنت أقول..

- لا تُكمل يا بني، اذهب لأمك وسوف أرجع آخر النهار.

قابل صميدة "كيوديني" على الباب، حياه و أوصاه على والده، تركه وعاد راكبــًا في عربة نقل، مارة أمام المقابر.

*

بعد انتهاء الاحتفال، دخلت سيدة إلى الأموات، تبدو في الأربعين من عمرها، برونزية اللون، خداها متوردان، شعرها ذهبي مفرود إلى خصرها، عيناها زرقاوان بلون موج البحر، ملفوفة في ثوب بنفسجي شفاف، وقفت أمام الشيخ عبد الرحمن، فأغرقته.

فتح جفونه عن آخرها، التصق لسانه في حلقه، شهق متراجعــًا إلى المقعد..

واصلت سيرها الخفيف، الذي يكاد يلمس الأرض، إلى داخل المقبرة متعجبة من حال الشيخ.

سلمت على "كيوديني"، أخبرته أنها تريد أن تطلع على كل السجلات.

ظن أنها من هؤلاء اللاتي يأتين للتفتيش والجرد، قالت:

- إنني أبحث عن أبي وأمي، ففي أي دفتر أجدهما؟.

- هل هما مدفونان أم مفقودان؟.

- لا أدري.

- ما اسمك يا ابنتي.

- اسمي "مايا".

- وما اسم والديك.

- الملازم "دونا ماكسويل" والطبيب "شاوصن".

- مَن؟!.

- ....

رسم الاندهاش علامة ضخمة على شفتيه، رأى شجرة السيليكا تنبت لها أوراق خضراء، فترك السجلات بين يديها، وهرع إلى الشيخ عبد الرحمن.

*

"الصحراء الغربية – المعادي الجديدة"

في ١٢ ديسمبر ٢٠٠٠

*** سيرة ذاتية**

من مواليد نوفمبر – ١٩٦٧.

يعمل جيولوجياً فى مجال البحث والتنقيب عن البترول/ رئيس قسم البتروفيزياء.

ويكتب في جريدة النهار اللبنانية مقالات نقدية.

صدر له خمس روايات:

١- غادة الأساطير الحالمة – رواية – الهيئة العامة لقصور الثقافة- ١٩٩٩.

الدار العربية للعلوم- ناشرون– بيروت ٢٠٠٩ طبعة ثانية.

٢- نبع الذهب – رواية – الهيئة العامة للكتاب – ٢٠٠٠.

٣- تفاحة الصحراء – رواية – مركز الحضارة العربية – ٢٠٠١ طبعة أولى.

الدار العربية للعلوم- ناشرون– بيروت ٢٠٠٧ طبعة ثانية.

٤- هالة النور – رواية – مركز الحضارة العربية – ٢٠٠٢ طبعة أولى.

الدار العربية للعلوم- ناشرون– بيروت ٢٠١٢ طبعة ثانية.

٥- خيال ساخن – رواية- الدار العربية للعلوم- ناشرون- بيروت، مكتبة "مدبولي"-

مصر، و"منشورات الإختلاف" – الجزائر- ٢٠٠٨.

صدر له للأطفال:

١- الحذاء الطائر- قصة- دار آصالة للنشر- بيروت- ٢٠١٢.

حـــاز :

١- جائزة نادي القصة في الرواية عام ١٩٩٩.

٢- جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة في الرواية عام ٢٠٠٠ / ٢٠٠١.

٣- جائزة إحسان عبد القدوس في الرواية عام ٢٠٠٨.

٤- جائزة وكالة سفنكس في أدب العشق (في دورتها الأولى) لعام ٢٠٠٩.